أعلام العرب

٣٨

أبو العلاء المعرّي

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

هـــذه الترجمة

لم يكن من الهين عليّ ، أن أجمع حياة أبى العلاء فى كتاب واحد . فحياته طويلة حافلة خصبة ، وكان الرأى عندنا ألا تؤرخ جملة ، قبل أن نفرغ من بحوث مفردة لكل جانب منها . وقبل ذلك ، يجب أن يكون تراثه بين أيدينا محققا ، لأنه الذى يعطينا مادة درسه ، ويضىء لنا فهم شخصيته .

ونحن لما نفرغ من نشر نصوص محققة لكل ما وصل الينـا من تراث أبى العـلاء ، كما لم نفرغ بعد من دراسـة جوانب شخصيته الرحبة على وجه التخصص ، ومن ثم كنت أفضل أن أرجىء تقديم هذا الكتاب ، لولا أنى كرهت ألا ألبى الدعوة الى كتابة ترجمة موجزة لأبى العلاء ، تقدمه الى جمهرة قراء العربية ، بعد أن حجب عنهم طويلا ، أو صور لهم على غير حقيقتـه التى تقدمها لنا آثاره .

وأنا أكتبها اليوم ، بعد طول صحبة لأبى العـلاء فى تراثه ، وتخصص فى تحقيقه ودراسته ، واذا كانت طبيعة المجال فى مثل هذه الترجمة ، لا تسمح باعطاء كل مصادر المـادة ومراجعها ، ولا تتسع لتفصيل المقدمات التى انتهت بنا الى رأى أو نتيجة ، فانى لأرجو أن يطمئن القارىء الى أن ما نقدمه اليه من هـــذه الترجمة الموجزة ، انمـا يعتمد أصـالة على ما تم لنا من درس

لأبى العلاء » واستقراء لمصادر هذا الدرس ، من آثاره وأقوال مؤرخيه .

وبعد فلست أرى أن أتعجل فأقدم أبا العلاء الى القــراء فى كلمات من هذه المقــدمة ، على نحو ما يفعــل كثير من كتاب التراجم . بل أوثر أن أدع أبا العلاء يقدم نفسه فى هذه الترجمة التى اتخذناه فيها دليل الرحلة . ذلك لأنه بين أدباء العربيــة ، يمكن أن يقال انه الوحيد الذى نستطيع تنسيق أدبه فى صورة مذكرات لحياته » وقد حرصت أشد الحرص ، على أن أترك له مهمة الحديث عن نفسه منذ وعى الى أن رحل عن الدنيا ، وأن أنقل الى القراء صوته فى كل خطوة من رحــلة الحيــاة ، دليلا أمينا صادقا .

والله المستعان .

عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطىء)

مصر الجديدة { رمضان : ١٣٨٤
يناير : ١٩٦٥ }

الفصل الأول

قبل المولد

الوراثة

- أجداد وآباء

تنوخ ، بنو الساطع ، آل سليمان

- أخوال

بنو سبيكة

- الوالد ، الأم ، الإخوة

أجداد وآباء

آتمشى القوافى تحت غير لوائنا
ونحن على قوّالها أمراء
وما سلبتنا العزّ قط قبيلة
ولا بات منا فيهم أسَراء
ولا سار فى عرض السماوة بارق
وليس له من قومنا خفراء
(سقط الزند)

خرج الى الدنيا والشمس غاربة والنهار مدبر ، وكانت ليلته الأولى على الأرض من ليالى المحاق ، ولولا مولده فى بيت علم وفضل ، لطويت تلك الليلة فى غيابة الزمن ، ولضاعت منا معالم الطفولة لذلك الوليد الذى قدر له أن يبهر الناس بعد حين ، وأن يلفت اليه تاريخنا الأدبى فيسجل أنفاسه منذ شب عن الطوق .

ذلك أنه حين ولد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، فى مغرب الشمس من يوم الجمعة لثلاث ليال بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة ، لم يكن فى حساب التاريخ ذلك الأديب الأكبر الموعود بالمجد ، ولا كان لأحد من أهل بلده أن يتكهن بأن هذا الوليد ، سوف يغدو أشهر من ينسب الى « معرة النعمان » فلا تذكر فى كتب البلدان والرحلات والتاريخ الا مقترنة

باسمه ومعرفة به ، مع أنها لم تكن مجهولة قبل مولده ، فقد ذكرها « البلاذرى » فى (فتوح البلدان) « وابن حوقل » — من جغرافيى القرن الرابع — فى (المسالك والممالك) « والواقدى » فى (فتوح الشام) .

كل ما فى أمر هذا الوليد ، أنه « أحمد بن عبد الله بن سليمان » سليل بيت ماجد معرق فى الفضل ، وآباء كرام منجبين ، فيهم ميراث بنى الساطع وعز تنوخ .

* * *

وتنوخ قبيلة عربية أصيلة ، يتصل نسبها بيعرب بن قحطان جد العرب العاربة ، ويمضى النسابون بها الى بعيد ، فيصلونها بهود بن شالح بن رافد بن سام بن نوح عليه السلام .

وكانت تنوخ بطونا من تيم اللات القضاعى القحطانى ، سميت بذلك لأنها تنخت من قديم بالشام ، أى أقامت ورسخت . ويقال انهم الذين اختطوا الحيرة وكانوا أول من عمّرها ونزلها ، وكان لهم بأس وقوة وغناء وكثرة ، وماضيهم حافل بالعزة والقوة والاباء ، وكانت لهم فى الجاهلية وقائع ظافرة مع الفرس ، ويشهد المؤرخون لتنوخ بأنها « كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا » .

وكذلك كانوا فى الاسلام من أشد قبائل العرب شوكة وأكثرهم فى جند الفتوح عددا ، وقد أبلوا فى قتال الفرس بلاء مشهودا حمية للعرب ، وان كانوا على دين النصرانية . وفى تاريخ

الفتوح أنهم أبوا — مع ذلك البلاء فى قتال الفرس — أن يؤدوا الجزية ، أنفة واعتزازا ببأسهم وبلائهم ، فلما سار « عمر » رضى الله عنه الى الشام ، قدموا عليه فلم يقنع منهم الا بالاسلام أو الحرب ، وأمهلهم سنتين ، على أن يؤدوا ما على أهل الذمة من جزية . فأبوا عليه وقالوا : خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية . فأبى « عمر » ثم أجابهم الى أن يأخذها على اسم الخراج . فاستجاب له قوم منهم وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبى العلاء ، وأسلم بعضهم فى أيام أبى عبيدة بن الجراح ، وبعضهم فى أيام المهدى بن المنصور أبى جعفر العباسى . أما الذين لم يستجيبوا ، فدخلوا الى بلاد الروم وهم على نصرانيتهم ، مع « جبلة بن الأيهم » آخر ملوك غسان .

* * *

وبنو الساطع ، الذين منهم بيوت المعرة ، أعز بطون تنوخ ، « وهم المشهورون بالشرف والسؤدد والرياسة والشجاعة والفضل » واسم الساطع : « النعمان بن عدى » قيل انه لقب بالساطع لجماله وبهائه ، وكان جوادا شجاعا ، ملك عليهم برهة وكانت له حروب ووقائع مع ملوك الفرس ، وشن الغارات على السواد ، فسميت تنوخ على أيامه بالدواسر ، لما ظهر من شدتهم وبأسهم .

وبعض المؤرخين يقولون ان « معرة النعمان » تنسب اليه ، وآخرون يذهبون الى أنها منسوبة الى « النعمان بن بشير الأنصارى » وكان واليا على حمص وقنسرين فى عهد معاوية

وابنه يزيد ، فخرج ابن للنعمان فى رحلة صيد الى أجمة كانت موضع المعرة ، فافترسه سبع فجزع عليه أبوه النعمان ، وبنى له منزلا عند قبره ، فبنى الناس لبنائه وعمرت البلدة ونسبت اليه .

* * *

وبيت أبى العلاء ، من بنى سليمان بن داود بن المطهر ، سليل الساطع . وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب : « وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان » وسليمان هو الجد الخامس لأبى العلاء ، ولى حفيده أبو الحسن سليمان بن أحمد ، قضاء المعرة ، ثم تولاه من بعده ولده أبو بكر محمد ، جد والد أبى العلاء ، وفيه يقول أبو بكر الصنوبرى :

بأبى يا ابن سليمان لقد سدت تنوخا
وهم السادة شبانا لعمرى وشيوخا
أدرك البغية من أضحى بناديك منيخا
وارداً عندك نيلا وفراتا وبليخا
واجدا منك متى استصرخ للمجد صريخا
فى زمان غادر الهمّات فى الناس مسوخا

وخلفه على قضاء المعرة بعد وفاته سنة ٣٣١ هـ ، ولده أبو الحسن سليمان بن محمد ، ثم تولى معه قضاء حمص أيضا ، وكان محدثا فاضلا شاعرا ، ومن شعره فى الناعورة :

وباكية على النهـر تئن ودمعهـا يجرى
تذكرنى بأحبـابى وحالى ليـلة النفر
وأذرى مثل ما تذرى وأسعدها وما تدرى
على فقدى لأحبابى وما قد فات من عمرى
فما هى فيه مشهور وما أنا فيه فى الستر
كأنى فى بسيط الأر ض بين الناس فى قبر

والقاضى أبو الحسن سليمان ، هو جد أبى العـلاء . توفى بحمص وهـو على قضـائها فى جمـادى الأولى سنة ٣٧٧ هـ وأبو العلاء فى الرابعة عشرة من عمره .

وجدّة أبى العلاء لأبيه : أم سلمة ، بنت أبى سعيد الحسن ابن اسحاق بن بلبل المعرى . ولى أبوها قضـاء المعرة ، وكانت تروى الحديث . وقد عاشت حتى بلغ حفيدها أبو العـلاء سن الطلب . وعدّتها « ابن العديم » فى (كتاب الانصاف والتحرى) بين الشيوخ الذين سمع أبو العلاء منهم الحديث .

فى هذا البيت الكريم الماجد ولد أبو العـلاء ، ومن تلك السلالة المعرقة فى الفضل والعزة والعلم والأدب ، تلقى ميراثه . وقد كان بعد أن شبّ ووعى بادى الاعتزاز بقومه وآله ، حريصا على تتبع مناقبهم ومفـاخرهم وقراءة ديوان شعرهم . وله فيهم شعر نابض بالحب والفخر والولاء ، منه قوله فى قبيلته :

أتمشى القوافى تحت غير لوائنا
ونحن على قوّالهـا أمـراء

وأى عظيم راب أهـــل بلادنا
فانا عــلى تغييره قدراء
وما ســلبتنا العــزّ قط قبيلة
ولا بات منـــا فيهم أسَراء
ولا سار فى عرض السماوة بارق
وليس له من قومنـــا خفـراء

أخـــواله

كأن بنى ســبيكة فوق طير　　يجوبون الغــوائر والنجادا

(سقط الزند)

أما خئولته ففى بيت معروف من بيوتات حلب . جده لأمه : محمد بن سبيكة ، وخالاه أبو القاسم على وأبو طاهر المشرف[1]. وكانت صلته بهما وثيقــة ، ولهمــا فى تراثه ذكر خاص ، ينبض بالمودة والاكبار . ونفهم منه أن أبا القاسم كان من أعيان التجار ، أما أبو طاهر فكان من شيوخ العربية .

ففى ديوان سقط الزند ، قصيدة مطولة أرســلها الى خاله أبى القاسم على ، وكان قد سافر الى المغرب فأطال الغيبة ، ومما قال فيها :

تفدّيك النفوس ولا تفــــادى
فأدنِ الوصــل أو أطل البعــادا

(١) ذهب الأستاذ محمد سليم الجندى ، فى كتابه (الجامع) الى أن أبا طاهر هو ابن خال أبى العــلاء « على أبى القاسم » وكان أهم ما استدل به ، رسالة كتبها أبو العــلاء الى أبى القاسم يعزيه فى أخ له اســمه أبو بكر ، وقال فيهــا : « والله يبقيه ولا يشقيه ، ويريه فى مولاى أبى طاهر وولده ما رآه فى ولده سعد والعشيرة .. »

ولم نطمئن الى ما ذهب اليه ، فليس ما يمنــع من أن يعزى بالأخ الحى عن الأخ الفقيد .

أرانا يا عليّ وان أقمنـــا
نشـــاطرك الصبابة والسهادا
ولولا أن يظـــن بنـــا غلو
لزدنا فى المقـــال مـــن استزادا
وقيـــل : أفاد بالأســـفار مالا
فقلنـــا : هل أفاد بهـــا فؤادا ؟
وهل هانت عزائمـــه ولانت
فقد كانت عرائكها شـــدادا
اذا ســـارتك شهبُ الليل قالت
أعان الله أبعـــدنا مرادا
وان جارتك هـــوج الريح كانت
أكلّ ركائبا وأقل زادا
علام هجرت شرق الأرض حتى
أتيت الغـــرب تختبر العبـــادا
وان تجد الديار كمـــا أراد الـ
غريب ، فما الصديق كما أرادا
اذا الشعرى اليمانية استنـــارت
فجدد للشـــآمية الودادا
ظعنت لتستفيـــد أخا وفيـــا
وضيّعت القـــديم المستفادا
نراسلك التنصـــح والقوافى
وغيرك من نعلمـــه الســـدادا

والى أبى القاسم على، كتب أبو العلاء رسالته اثر انسحابه من بغداد ومن الدنيا، فبكى فيها أمه التى ماتت قبل وصوله، ونفض لدى خاله ما كان يثقله من همّ ويئوده من قهر وشجن، واعتذر اليه عن عدم مروره بحلب، فى طريق العودة من بغداد، اعتذار مقصر محزون ...

وذكر خاله أبا طاهر، فأثنى عليه أطيب الثناء ..

وختم رسالته بتحية حارة الى خاليه أبى القاسم وأبى طاهر فقال :

« وأنا أحمـــل الى مولاى، أدام الله عــزه، والى مولاى أبى طاهر عضدنى الله ببقائه، سلاما له نضرة الآلاء وصفاء الماء وعذوبة الأرى وتتابع القطر وخلود النجوم وأرج العرار وتألق الوميض »

ولدينا كذلك من مجموع رسائل أبى العلاء، رســالة أخرى كتبها وهو ببغداد، الى خاله الشيخ أبى طاهر المشرف، ومنهـا نعلم أنه كان مشتغلا بأمر (شرح السيرافى) لكتاب سيبويه فى النحو، كما نعلم أنه كانت بينه وبين أبى العلاء مراسلات سابقة، حول نسخ من شرح السيرافى بخطوط مختلفة، أراد أن يعرف رأى أبى العلاء فى كل منها .

والرسالة تستهل بالاعراب عن شــوق عميق لخاله، وأسف لبعده، وتذكر لماضى أوقاته معه « تذكر الفطيم ثدى الوالدة » وفزع الى نجدته، وثقة بمكارمه، وشكر على أياديه يتجدد مع النفس ثم قال :

« وفى هذا اليوم وصل كتابه فسررت به سرور الظمآن ورد نميرا والساهر صادف سميرا . وكان ما ضمنه من ذكر سلامته ، بشرى لها تخف الأحلام خفة القائل ولا يلام : (يا بشرى هـذا غلام) والله يمن باجتماع ليس بعده من ازماع .

« وفهمت ما ذكره من أمر النسخة المحصّلة ، وهو أدام الله عزه ، الكريم المتكرم وأنا المثقل المبرم ... وقد كنت قلت فى بعض كتبى الى سيدى : ان كانت الخطوط مختلفة والأبواب مؤتلفة فلا بأس ... ما عدا خط على بن عيسى — الربعى — فانه رجل اتكل على مافى صدره فتهاون باحكام سطره . وانما رجوت ببركته — يعنى خاله — أن يرتفق أناس كما قال الله تعالى : (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) ....

« وأنا والجماعة نهدى الى سيدى الشيخ والى جميع أصدقائه ، سلاما تأرج الكتب بحمله .. وحسبى الله »

* * *

وفى أخواله يقول :

كأن بنى سبيكة فوق طير ... يجوبون الغوائر والنجادا
أبالاسكندر الملك اقتديتم ... فما تضعون فى بلد وسادا

الوالد

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى، والجيب، والذيل والردن
فيا ليت شعرى هل يخف وقاره
اذا صار أحد فى القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبادرا
مع الناس ، أم يأبى الزحام فيستأنى
(سقط الزند)

أما أسرة الوليد — ونستعمل الأسرة بدلالتها المألوفة فى عصرنا ، وبهذه الدلالة استعملها أبو العلاء فى رسالة الغفران وفى سقط الزند — فوالده عبد الله بن سليمان ، ولد سنة ٣٣٠ هـ وجده أبو بكر محمد بن سليمان على قضاء المعرة . وبعد عام واحد من مولد « عبد الله » ، توفى جده فخلفه أبوه على قضاء المعرة ، وولى معه قضاء حمص . وكانت لعبد الله أخت تزوجت فى آل المهذب المعرى ، وولدها أبو صالح محمد ابن المهذب ، من لدات أبى العلاء ورفاقه فى الدرس .

روى عبد الله الحديث عن جده وأبيه ، وعن عدد من شيوخ الشام فى عصره ، منهم الحافظ أبو بكر السبيعى نزيل حلب ،

وأبو عبد الله الحسين بن خالويه امام اللغة بالشام ، وعبد الله ابن محمد البغوى .

ويذكر عبد الله ، فى تاريخ المعرة وحلب : « فاضلا لغويا أديبا شاعرا » .

وقد أصهر الى بيت كريم من بيوت حلب ، فتزوج « بنت محمد بن سبيكة » فى وقت لم يحدده الاخباريون ، وان كنا نستطيع أن نطمئن الى أن هذا الزواج كان حوالى عام ٣٥٠ ﻫ أو بعدها بقليل ، حيث تقرأ فى أخبار الأسرة ، أن أبا المجد محمد ، الابن الأكبر لعبد الله ، ولد سنة ٣٥٥ ﻫ ، وأبوه فى الخامسة والعشرين من عمره . ومضت ثمانى سنوات قبل أن يرزق الأبوان بوليدهما أحمد أبى العلاء سنة ٣٦٣ ﻫ . ثم ولد أخوه الأصغر ، أبو الهيثم عبد الواحد ، سنة ٣٧١ ﻫ .

* * *

ولا كلمة واحدة ، فيما ذكر مؤرخو الأسرة أو مؤرخو أبى العلاء ، عن الحياة الخاصة للأسرة ، مما يمكن أن يضيف ضوءا جديدا لفهم موقف أبى العلاء من الزواج والمرأة ، الى جانب ما نعرفه من ظروفه الشخصية ، مستقلة عن الجو النفسى والمعنوى للبيت الذى تنفس فيه ، وعاطفة أبويه أحدهما نحو الآخر .

ونلتقط مع ذلك بيتين رواهما « ابن العديم » من شعر عبد الله ، نفهم منهما أنه قد كانت له جارية تشغل من قلبه مكانة خاصة ، وتشده اليها عاطفة قوية معلنة ، فلما ماتت حزن

لفراقها حزنا شديدا ، بحيث ودّ لو أنه كان الميت ، وكانت هى التى تتقبل العزاء فيه :

مولاكِ يا مــولاة مولاها على
حـــال تسر عــدوه ، وتضره
ويودّه لــو كنتِ أنت مــكانه
فى الزائرين ، وأن قبرك قــبره

ويشهد نص آخــر من شعره ، أنه كان مشبوب العــاطفة مرهف المزاج رقيق القلب ، متفننا فى صنعة الشعر :

سمعتم بأجــور من ظالم أعلّ الفــؤاد وما عاده
وقـــد كان واعدنى مرة فأخلف يا قوم ميعـــاده

أما ملامح شخصيته ، فيما عدا هذا الذى ذكروه عن علمه وفضله ، ورووا له من شعر ينم عن رقة قلبه وحــرارة عواطفه ، فنستطيع أن نميزها فى حديث ولده أبى العلاء عنه . وأبو العلاء لم يتحدث عنه الا فى مرثية واحدة ، تفيض بالاكبار والاجلال ، وتمثله لنا نقى الضمير واليد واللسان ، مهيبــا وقورا يتحاشى الزحام :

أبى حكمت فيــه الليــالى ولم تزل
رماح المنــــايا قادرات على الطعــن
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى ، والجيب والذيل والردن
فيا ليت شــعرى هـــل يخف وقاره
اذا صار أحْدٌ فى القيامة كالعِهن

وهــل يرد الحوض الروىّ مبـــادرا
مع النـــاس أم يأبى الزحام فيستأنى
أمــرّ بربع كنت فيـــه كأنمــــا
أمر من الاكـــرام بالحجـــر والركن
واجــــلال مغناك اجتهـــادُ مقصِّر
اذا السيف أودى فالعفـــاء على الجفن

ونعلم من أخبار أبى العلاء ، أن والده كان معلمــه الأول ، وعنه روى الحديث وتلقى دروسه الأولى فى علوم اللغة ، ومنه تلقى ميراثه الشعرى ، حيث يخاطبه فى مرثيته بقوله :

أمولى القوافى كم أراك انقيـــادها
لك الفصحاء العُرْبَ كالعجم اللكن

وقد ظل يرعاه ، ويقوده على الطريق الى أن رزىء بموته . وفى سنة وفاته ومكانها ، اختلف الاخباريون ، فعند ياقوت أن عبد الله « توفى بحمص ســـنة ٣٧٧ هـ » على حين يذكر « ابن العديم » أنه توفى بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ .

والراجح عندنا قول ابن العديم بوفاة والد أبى العلاء بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ ، على ما سوف نبينه فى موضعه من حيـــاة أبى العلاء .

الأم

سقتني دَرَّها ، ودعتْ ، وباتت
تعوذني وتقرأ أو تسمى

من قصيدة لأبي العلاء في شيخوخته

وقلما التفت مؤرخو أبي العلاء وجامعو أخباره ، الى الأم التي أنجبت أديب العربية الأكبر . وكل ما ذكروه عنها ، أنها « بنت محمد بن سبيكة » وأنها ماتت وأبو العلاء في طريق عودته من بغداد الى المعرة ، سنة ٤٠٠ هـ ، قبل أن تودعه !

ونستقرىء آثار أبي العلاء ، فلا نجد فيها من الشطر الأول ، حديثا عن أمه . لكنها تبدأ فتظهر في آثاره ، من بدء رحلته الى بغداد ، ثم يظل طيفها معنا في جوه ، الى آخر العمر .

وهو ما سافر الى بغداد ، الا بعد أن استأذنها فأذنت له في السفر . حيث نقرأ في رسالته الى خاله أبي القاسم علي :

« على أني والله قد أعلمتها أني مرتحل ، وأن عزمي على ذلك جاد مزمع ، فأذنتْ فيه » .

ونكاد لا نتردد في القول بأن وراء حنينه الى المعرة أيام غربته ببغداد ، طيف هذه الأم التي آثرها بأعمق الحب وأصفاه ، وكان

حبه لها نقيا محضا غير مشوب بعنصر الاكبار الذى يغلب على حبه لأبيه وخاليه على والمشرف . وقد أجهده الحنين الى الديار اثر فراقه لها ، وكان تحنان الأبل يهيج مواجعه وأشجانه ويلهب فيه الوجد والشوق :

لقد زارنى طيف الخيـال فهاجنى
فهل زار هذى الابل طيف خيـالِ
وان ذهلت عما أجنّ صـدورها
فقد ألهبتْ وجـداً نفوسَ رجال
تهـادانىَ الأرواح حتى تحطنى
على يد ريح بالفـرات شـمالِ
فيا برق ليس الكرخ دارى وانمـا
رمانى اليـه الدهر منـذ ليـال
فهل فيك من ماء المعـرة قطـرة
تغيث بهـا ظمآن ليس بسـال

ذلك الطيف الزائر كان طيف أمه ، يعاوده فى اليقظة والمنام، حيث نسمعه فى احـدى مراثيه للأم ، يتحدث عن حلم ألم به فى الكرى ، فرأى أن أحد نواجذه سقط ، وتشـاءم وفى قلبـه هاجس مرعب ، لولا أنه اسـتهول أن يكون تأويل رؤياه موت أمه ، وشتان ما بين ناجذ يجد عنه عوضـا ، وبين أم لا عوض عنها ولا عزاء !

وقد بلغه وهو بالعراق أنها مريضة ، فعجل ذلك بعودته الى المعرة ، وحسم قراره بالانسحاب وكان قد صمم عليه ،

لكنه أقام يتهيأ له ويترقب الفرصة . وفى قصيدة من سقط الزند ، يقول مخاطبا أهل بغداد بعد فراقه لهم :

أثارنى عنكم أمران : والدة
لم ألقها ، وثراء عاد مسفوتا
أحياهما الله عصرَ البين ثم قضى
قبل الاياب الى الذخرين أن موتا
لولا رجاء لقائيها لما تبعت
عنسى دليلا كسِرٌ الغمد اصليتا
ولا صحبتُ ذئاب الانس طاوية
تراقب الجدى فى الخضراء مسبوتا

ذلك لأنه آب الى داره ، فوجد أمه قد ماتت قبل أن يلقاها . فكأنما ارتد لفرط حزنه وجزعه ، طفلا رضيعا فقد أمه ! وتشجينا مراثيه لها ، على بعد العهد بها ، ونحس أنها ومضات لهب متقد فى فؤاده المتصدع . ومنها ، ومن أشعار له فى اللزوميات ، وأماليه عن أمه فى الفصول والغابات ، وفى رسائله الى خاله — وسوف نعرض لها بمزيد تفصيل — ندرك عمق العاطفة التى كانت تربطه بأمه ، وعجزه عن نسيانها والسلو عنها ، فى يقظة أو منام ، وفيها يقول :

اذا نمت لاقيت الأحبة بعدما
طوتهم شهور فى التراب وأحوال!
« يا سلوة الأيام موعدك الحشر ، موعد والله بعيد ! »

وصدق أبو العلاء .

لم يسل أمّه قط ، على تطاول الأعوام وتنائى المزار : ففى شيخوخته الواهنة ، يذكرها فى قصيدة قالها فى ابن أخيه القاضى أبى عبد الله محمد :

أعبد الله ، ما أسدى جميلا نظير جميل فعلك مثل أمى
سقتنى درها ودعت وباتت تعوذنى ، وتقرأ ، أو تسمى

ويقول فى اللزوميات :

تصدق على الأعمى بأخذ يمينه
لتهديه ، وامنن بافهامك الصمّا
وأعط أباك النصف حيا وميتا
وفضّل عليه من كرامتها الأما
أقلك خفا اذ أقلتك مثقلا
وأرضعت الحولين واحتملت تما
وألقتك عن جهد وألقاك لذة
وضمّت ، وشمت ، مثلما ضم أوشما

ويؤكد هذا المعنى بقوله :

العيش ماض فأكرم والديك به
والأم أولى باكرام واحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه
أمران بالفضل نالا كل انسان

ومن اللافت هنـــا ، أن أبا العلاء فى بره بالأمــومة ، يذكر ما احتملت من مشقة وهمّ ، وما بذلت من حنـــان وأسدت من جميل ، وينسى لها أنها شاركت فى الجناية التى أخــذ بها أباه فى بيته المشهور الذى أوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد

الإخـــوة

« وكانت الفتاوى فى بيتهم ، فى أكثر
من مائتى سنة بالمعرة »
(ابن العديم)

كانوا ثلاثة اخـوة ، جمعتهم الأبوة الواحـدة والمهـد المشترك ، وتلقوا جميعا ميراث البيت المعرق فى الفضل والأدب ، على تفاوت فى حظ كل منهم من ذلك الميراث ، وعـلى تباعـد ما بينهم نسبيا ، فى المولد والسن والأثر ..

أكبرهم : أبو المجد محمد بن عبد الله بن سـليمان ، المولود سنة ٣٥٥ هـ . « وكان فاضـــلا أديبا شاعرا ، وله ديوان شعر مجموع » ويعدونه بين الذين روى عنهم أبو العلاء .

ولأبى المجد ولدان وليا قضاء المعرة : أبو محمد عبد الله الذى كان من أقرب الناس الى عمه أبى العلاء ، وأبرهم به ، وأكثرهم اخلاصا فى خدمته . وسنعود للحديث منه فى فضـــل يلى — والقاضى أبو الحسن على ، سمع على عمه أبى العـــلاء جميع أماليه ، ونسخها بخطه ، وولى قضاء حماة فى سنة ٤٥١ هـ بعـد موت أبى العلاء بسنتين .

وثانى الاخوة ، أحمد أبو العلاء

وأصغرهم : أبو الهيثم عبد الواحد ، المولود سنة ٣٧١ هـ .
وكان شاعرا مجيدا ننقل من شعره — فيما يأتى من حديث عن رحلة بغداد — قصيدة مؤثرة كتبها الى أخيه مستعطفا ، يسأله العودة رفقا بأحبابه فى المعرة . وهى تعطينا فكرة واضحة عما كان أبو العلاء يحظى به من حب أخيه واكباره . وقد كان شاعرا مجيدا « روى عنه أبو العلاء شيئا من شعره ، وجمعه لولده زيد بن عبد الواحد » ومنه قوله وقد مرّ برجل يقلع حجارة من أطلال « سياث » وهى المعرة القديمة :

مررت بربع من سياث فراعنى
به زجَل الأحجار تحت المعاول

أتتلفَها ، شُلت يمينك خلّها
لمعتبر أو زائر أو سائل

منازل قوم حدثتنا حديثهم
فلم أر أحلى من حديث المنازل .

وقد قرأ زيد بن عبد الواحد على عمه أبى العلاء ، وكذلك قرأ عليه ولده منافر — جابر ؟ — بن زيد ، وكتب بخطه من تصانيف أبى العلاء ، ما شهد له « ابن العديم » بالفضل وحسن النقل .

* * *

وقد عاش أبو العلاء بعد أخويه .

أما الأخ الأصغر ، أبو الهيثم ، فمات سنة ٤٠٥ هـ ، ولما يبلغ

الخامسة والثلاثين من عمره ، وليس له عقب سوى زيد وولده جابر .

وأما الأخ الأكبر أبو المجد ، فعاش حتى بلغ الخامسة والسبعين من عمره ، وتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

وفى ولد أبى المجد ، عقب بنى سليمان . وقد استقصى « ابن العديم » مؤرخ حلب ، من اشتهر منهم ، الى منتصف القرن السابع الهجرى ، بالعلم والفضل ، ومن ولى القضاء . ثم نقل عن أبى القاسم بن الحسين الأنصارى ، عن الحافظ أبى طاهر السلفى أنه قال :

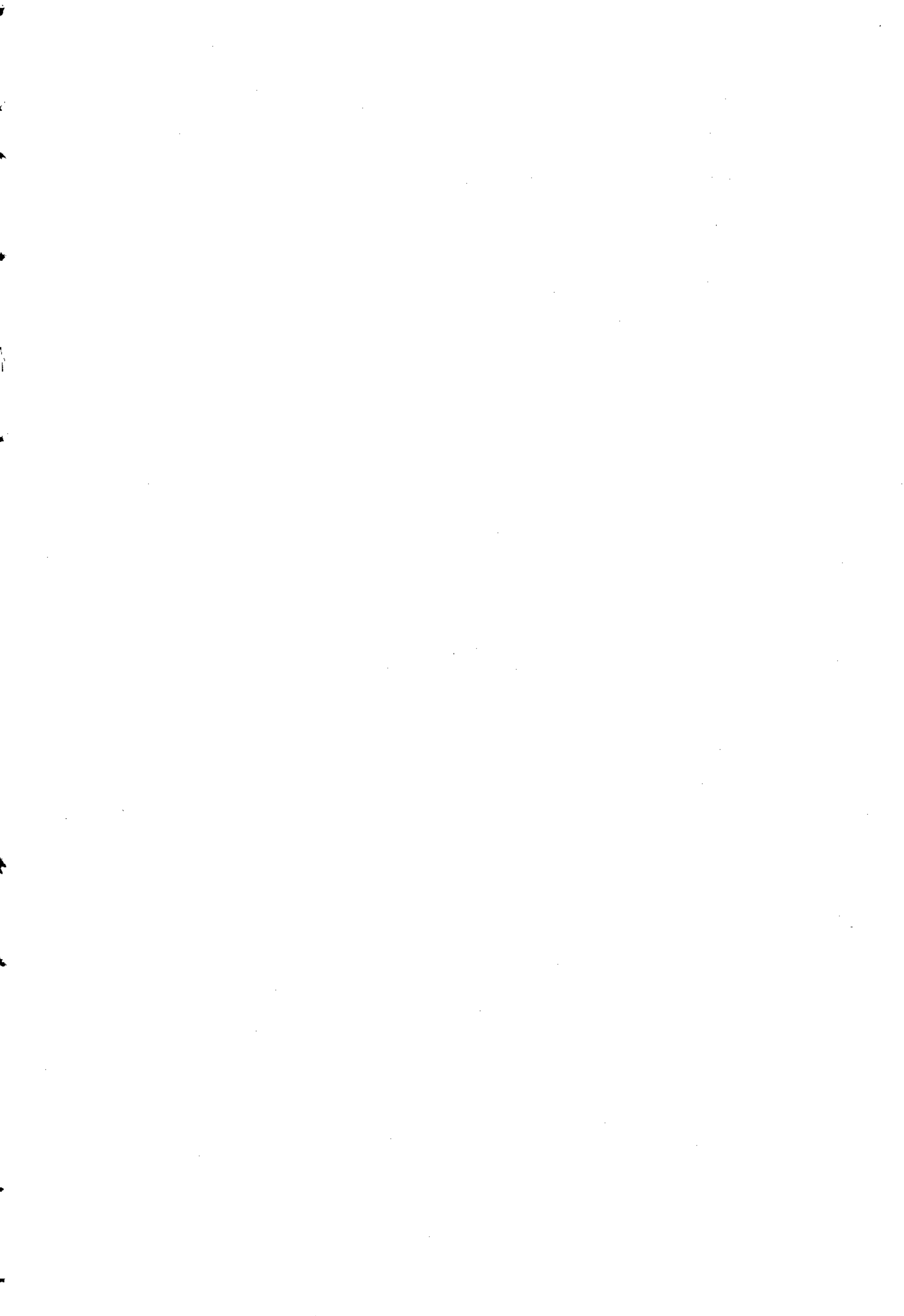
« قال لى الرئيس أبو المكارم ، وكان من أفراد الزمان : وكانت الفتاوى فى بيتهم — يعنى بنى سليمان — على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، فى أكثر من مائتى سنة بالمعرة . »

* * *

وماذا عن البيئة ؟

المألوف فى التراجم ، أن يأتى الحديث عن البيئة اثر الحديث عن البيت والأسرة ، لكنى فى هذه الرحلة لحياة أبى العلاء بوجه خاص ، أرى أن موضع الحديث عن البيئة والعصر ، يحسن أن يتأخر الى أن يفرغ أبو العلاء من الشوط الأول لرحلة حياته ، ويخرج الى الدنيا بسفره الى بغداد . فهناك يواجه البيئة العامة ، ويبلو تجربة الاتصال بها ، والتنفس فى جوها ، بعد أن كان قبل

الخروج ، يكاد يكون مشغولا عنها بهموم طموحه ، وشواغل تحديه لمحنته . أو بعبارة أخرى ، يكاد يكون شبه معزول فى نطاق دنياه الخاصة ، عما وراءها من صخب الحياة العامة وأوضاعها . فلنكتف الآن بما قدمنا لرحلة حياته ، من حديث عن بيته وأسرته .



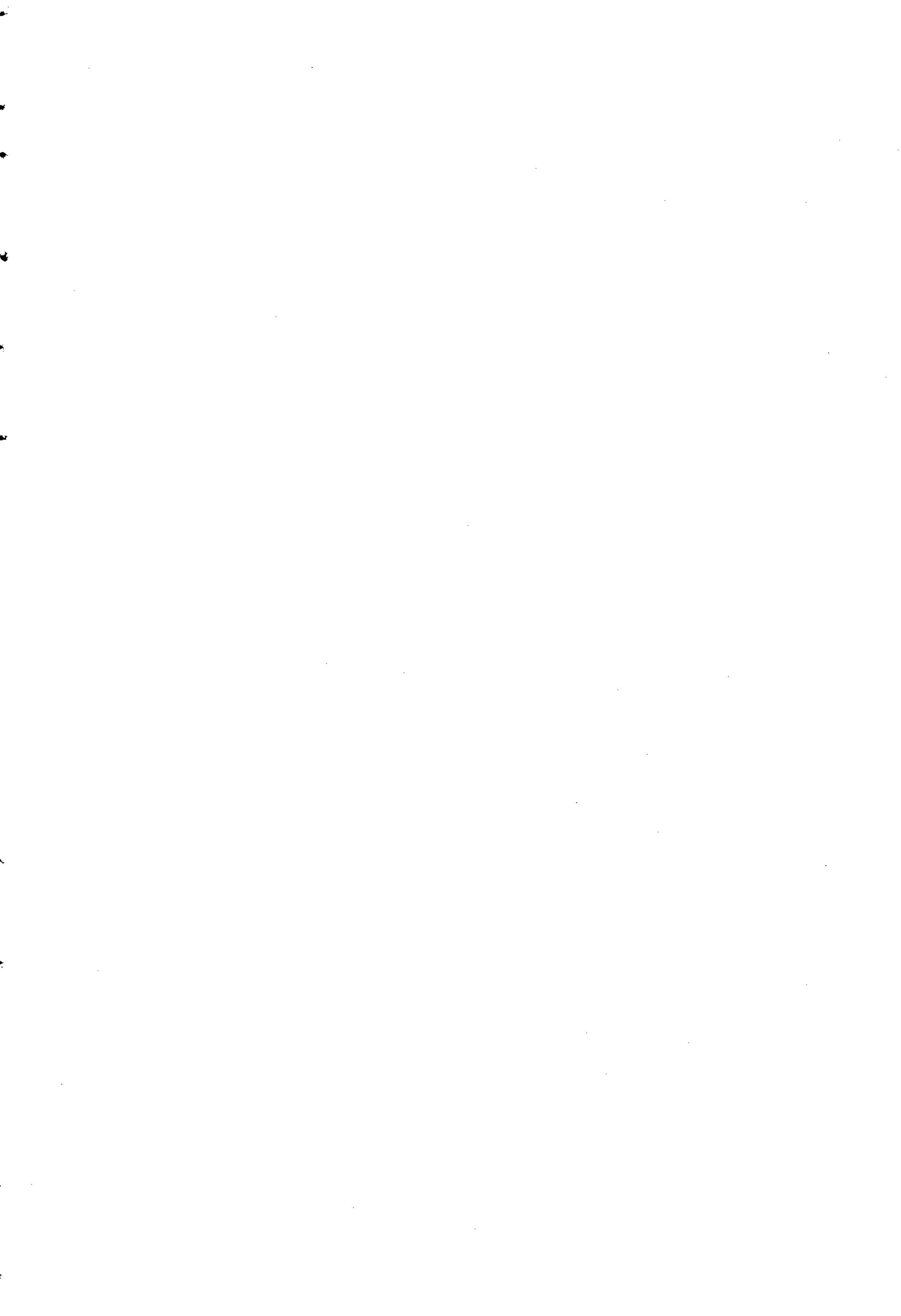
الفصل الثاني

رحلة حياة

المرحلة الأولى

معركة التحدي والطموح

- الطفل الضرير
- الغلام الموهوب
- الشاب الطامح
- ومضات كاشفة
- موت الأب
- إحدى الراحتين



الطفل الضرير

«قضى على وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والربع »

من رسالة أبى العلاء الى داعى الدعاة

كان من حق مثله ، أن تتهيأ له من بيئته ظروف مسعفة على النبوغ ، وأن يبدأ منذ الفطام خطوته الأولى على الطريق الذى سار عليه أبوه وأجداده كابرا عن كابر . ولعل مخايل النجابة لاحت عليه فى طفولته الباكرة ، فأرهفت فيه ميراث الطموح . لكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الفادحة قبل أن تستقيم خطوته على درب الوجود : اعتل فى سنته الرابعة علة الجدرى ، فما أبلّ منها الا وقد شوهت وجهه بندوب لا برء منها ، وذهبت ببصره مسدلة بينه وبين الدنيا حجابا كثيفا حالك السواد ، فما انجاب عنه حتى آخر العمر .

من ذلك الحادث الملم، تبدأ قصة أبى العلاء مع الدنيا ...

ومن مؤرخيه من قال انه تلقى هذه الصدمة فى سنته الثالثة ، ذكر ذلك « الصفدى » فى (نكت الهميان) و «ابن حجر » فى (لسان الميزان) . لكن أبا العلاء يقول فى احدى رسائله الى داعى الدعاة :

« قضى عليّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والربع »

وليس بمستبعد أن يكون قد جدر فى أخريات سنته الثالثة ، ثم عمى فى أوائل الرابعة . وكان كل ما بقى له من ذكريات عهده بنور العين ، لون الثوب الأحمر الذى ألبسوه اياه فى علته ، قال :

« لا أعرف من الألوان الا الأحمر ، لأنى ألبست فى الجدرى ثوبا مصبوغا بالعصفر ، لا أعقل غير ذلك . »

* * *

وبقى لنا من ملامح صورته بعد المحنة ، ما نقله « ابن العديم » فى (الانصاف والتحرى) حكاية عن « ابن منقذ » أنه رأى أبا العلاء وهو صبى دون البلوغ ، ووصفه فقال : « وهو صبى دميم الخلقة مجدور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرى ، كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا . »

كما نقل من قول عبد الله بن الوليد الايادى المعرى ، وقد رآه شيخا :

« وكأنى أنظر اليه الساعة والى عينيه : احداهما نادرة والأخرى غائرة جدا ، وهو مجدّر الوجه نحيف الجسم » .

وتكفى هذه المرويات لنتمثله فى صباه الباكر ، حين بدأ يخطو على درب الحياة وبينه وبين الدنيا هذا الحجاب الأصم من ظلام دامس لا أمل فى انحساره

* * *

فى ذلك الحين لم يكن الصبى قد نضج وعيه أو اتسعت مداركه بحيث يقدر فداحة المحنة وهول المأساة . وقد دربه أهله على

مواجهة عالم الظلام وراضوه عليه حتى ألفه واعتاده ، على أنه سوف يدرك بعد نضج السن والوعى ، أن مأساة حياته كلها بدأت بتلك الآفة التى قضت عليه وهو فى الرابعة من عمره ، كما قال فى احدى رسائل شيخوخته وسوف نسمعه فى الشطر الثانى من حياته يطيل الحديث عن محنة العمى ، وعن الظلام الذى لا ينجاب ، والليل الطويل الذى لا ينجلى ، ويعد من مزايا ضجعة القبر أن تأمن العين المنطفئة فى الثرى من عمى أو رمد . ثم

إذا طفئت فى الثرى مقلتان فقد أمنتا من عمى أو رمد

الغلام الموهوب

« ما سمعت شيئا الا حفظته ، وما حفظت شيئا ونسيته »
(أبو العلاء)

تعثرت خطوته الأولى على الطريق ، فقاده أبوه الى عالم يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام عينيه :

قرأ القرآن على جماعة من الشيوخ « ممن يُسار اليهم فى القراءات » وسمع الحديث من أبيه عبد الله وجده سليمان وأخيه أبى المجد وجدته أم سلمة بنت الحسن بن اسحاق بن بلبل المعرى . وعن أبى زكريا يحيى بن مسعر المعرى ، وأبى الفرج عبد الصمد الضرير الحمصى ، والقاضى أبى عمرو عثمان الطرسوسى ، وغيرهم من محدثى المعرة وحلب فى زمانه .

وتلقى علوم اللغة والنحو بمعرة النعمان ، على أبيه ، وعلى أبى بكر بن مسعود النحوى ، وجماعة من أصحاب « ابن خالويه » .

وكان الذى ظهر من ذكائه ونجابته ، قد أغرى أباه بأن يمضى به الى حلب — وفيها أخواله — حيث تلقى النحو على « محمد بن عبد الله بن سعد النحوى » .

وكان الظن الغالب ، أن أبا العلاء بدأ من ذلك العهد ،

اتصاله بالأدب ومعرفته بشعر المتنبى ، حيث كان شيخه ابن سعد ، راوية أبى الطيب . لكن خبرا نقله ابن العديم فى (الانصاف والتحرى) يجعلنا نتردد فيما غلب علينا من ظن . وخلاصة الخبر أن ابن سعد كان يروى " بمسمع من أبى العلاء — وقد اجتمع معه بحلب وهو صغير — قصيدة المتنبى الدالية :

أزائر" يا خيـــال أم عائد   أم عند مــولاك أننى راقــد

ولم تكن القصيدة مما قرأه ابن سعد على المتنبى " بل كانت مما أنفذه اليه . فلما وصل الى قوله :

أو مَوْضعا فى فنـــاء ناحية   تحمل فى التاج هامة العــاقد

رده عليه أبو العلاء الصبى وقال :

* أو مُوضِعا فى فتان ناجية [1] *

فلم يقبل ذلك ابن سعد ، ومضى الى نسخة عراقية ، فوجد القول ما قاله أبو العلاء .

فهل كان الصبى قد اتصل بشعر المتنبى قبل مجيئه الى حلب ؟ أو كان ما قاله فى البيت لمحة وجدان ذكى ، تذكرنا بمثلها من « طرفة » حين سمع وهو صبى يلعب مع الغلمان بيت « المتلمس » :

وقد أتناسى الهم عند احتضـــاره

بنـــاج عليـــه الصيعرية مكدم

فصاح الصبى طرفة : « استنوق الجمل » .

لأن الصيعرية سمة فى عنق الناقة لا البعير .

---

(١) أوضع فى السير فهو موضع : أسرع . والفتان : غشاء من أدم يوضع فوق الرحل . والناجية : الناقة السريعة .

وسواء أكان أبو العلاء قد أنكر رواية ابن سعد للبيت عن ذوق شاعر مرهف، أو كان قد سمعه على الرواية الصحيحة فيما سمع من أماليه اللغوية وهو يقرأ اللغة والنحو بمعرة النعمان فالخبر يوضح لنا اتصال أبي العلاء براوية المتنبي في تلك الفترة من صباه الغض المتفتح لاستقبال المؤثرات الذوقية. ولم يكن هذا الاتصال سريعا عابرا، بل كان تلمذة علمية وأدبية لعلنا نلتقط منها ما قد يفسر لنا الذى طالما حيرنا من إعجاب أبي العلاء بالمتنبى، على ما بين الرجلين من بون شاسع في الخلقية والطبع وفي السلوك الأدبي والاجتماعي.

* * *

واستأنف الصبى سيرته يطلب العلم. وفي خبر(1) أنه رحل إلى طرابلس الشام، وكان بها خزائن كتب موقوفة. وأنه في رحلته «مر باللاذقية ونزل ديرا كان به راهب، له علم بأقاويل الفلاسفة، سمع أبو العلاء بعض كلامه، فحصل له به شكوك» يرد إليها بعض مؤرخيه ما رابهم من أمر عقيدته.

وتتساقط الأخبار المروية عن تلك الرحلة:

فابن كثير في (البداية والنهاية) لا يشير إلى مكانها، بل يكتفي بملاحظة: «ويقال إنه اجتمع براهب في بعض الصوامع، في مجيئه من بعض السواحل آواه الليل عنده فشككه في دين الاسلام»!

---

(1) وابن العديم — وهو عندنا أولى بالثقة — ينفي الرحلة إلى طرابلس جملة فيقول (الإنصاف والتحري)

« وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر فى كتبها . واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد ، ولم يكن بطرابلس دار علم فى أيام أبى العلاء ، وانما جدد دارَ العلم بها القاضى جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن أحمد ابن عمار » فى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة . ووقف ابن عمار بها من تصانيف أبى العلاء : الصاهل والشاحج ، والسجع السلطانى ، والفصول والغايات ، والسادن ، واقليد الغايات ، ورسالة الاغريض » .

وفى خبر آخر ، أنه رحل الى أنطاكية وتردد الى خزانة كتبها يحفظ ما فيها . قال « ابن منقذ » فيما نقل ابن العديم فى (الانصاف) :

« كان بأنطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلا علويا ، فجلست يوما اليه فقال : قد خبأت لك غريبة طريفة لم يسمع بمثلها ... صبى دون البلوغ ضرير يتردد الى ، وقد حفظته فى أيام قلائل عدة كتب ، وذلك لأننى أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فلا يستعيد الا ما يشك فيه ، ثم يتلو علىّ ماقد سمعه كأنه من محفوظه . قلت : فلعله يكون يحفظ ذلك . قال: سبحان الله ! كل كتاب فى الدنيا يكون محفوظا له ؟ وان كان ذلك كذلك فهو أعظم . ثم حضر المشار اليه ، وهو صبى دميم الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من أثر الجدرى كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا ، وهو يتوقد ذكاء ، يقوده رجل طوال من الرجال أحسبه يقرب من نسبه ... فاخترت شيئا وقرأته على الصبى وهو يموج ويستزيده فاذا مر به شيء يحتاج الى تقريره فى خاطره

يقول : أعد هذا . فأرده عليه مرة واحدة حتى اتنهيت الى ما يزيد على كراسة ، فتلا على ما أمليته عليه وأنا أعارضه بالكتاب حرفا حرفا حتى انتهى الى حيث وقفت ، فكاد عقلى يذهب لما رأيت منه . وسألت عنه فقيل لى : هذا أبو العلاء التنوخى من بيت العلم والقضاء والثروة والغناء » .

وفى الحكاية وهم أشـــار اليــه « ابن العديم » : ذلك أن أنطاكية كانت بأيدى الروم من سنة ٣٥٨ هـ قبل مولد أبى العلاء ، الى أن فتحها سليمان بن قطامش سنة ٤٧٧ هـ بعد موت أبى العلاء بثمانية عشر عاما . لكن هذا الوهم لا يضيع دلالتها على ما شاع وذاع من ذكاء الصبى الضرير وعجيب حفظه ، وقد عقد ابن العديم فصلا « فى ذكر ذكاء أبى العلاء وفطنته ، وسرعة حفظه وألمعيته ، وتوقد خاطره وبصيرته » أورد فيه أعاجيب ان اتهمناها بالوضع ، فلن تتهم دلالتها على رأى معاصريه فيه ، وانبهارهم بما ظهر من نجابته وفطنته وقوة حافظته ، مذ كان صبيا دون البلوغ .

وبمثل هذه الدلالة ، تشهد حكاية ذكرها بعض مؤرخيه ، وخلاصتها أن أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير ، فسافر جماعة من أكابرهم لينظروه ويمتحنوه ، فقال لهم : هل لكم فى المقافاة بالشعر ؟ فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، وهو ينشد من حفظه بيتا على قافيته ، حتى نفد حفظهم فقال : أعجزتم أن يعمل الواحد منكم بيتا عند الحاجة اليه على القافية التى يريد ؟ قالوا : فافعل أنت ذلك ، فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا ، أجابه من نظمه على قافية البيت ، حتى قطعهم جميعا !

الشاب الطامح

لى الشـــرف الـــذى يطأ الثريا
مع الفضـــل الـــذى بهر العبـــادا
أفـــلّ نوائب الأيام وحـــــدى
اذا جمعت كتائبهـــا احتشـــادا

(سقط الزند)

من ذلك العهد المبكر ، اهتدى أبو العلاء الى سـلاحه فى معركة الوجود وعرف طريقه على الدرب . وقد أرضاه أن يجد فى موهبته الفذة عوضا عما فقد ، وأن يلتمس من العلم النور الذى حجبه عنه العمى مذ كان فى المهد صبيا .

وفى اعتداد وعناد ، صمم على أن يتحدى محنته ، وأن يشق سبيله مع الأحياء لا يعوقه فقد البصر . وبلغ المدى فى مكابرته ، فرئى فى صباه يلعب النرد والشطرنج ويأخذ فى فنون اللهو والجد كما يفعل لداته المبصرون . ومن أقدم ما وصل الينا من أخباره ، ما رواه معاصره « أبو منصور الثعالبى » فى (تتمة اليتيمة) قال : « وكان حدثنى أبو الحسن المصيصى الشاعر وهو ممن لقيته قديما وحديثا فى مدة ثلاثين سنة . قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ،

ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لى وأحسن بى اذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء »

ونقلوا فى ذلك قوله :

قالوا : العمى منظر قبيح   قلت : بفقدانكم يهون
والله مافى الوجود شىء   تأسى على فقده العيون

والبيتان مما لم يرو فىديوانيه (سقط الزند ولزوم ما لا يلزم) على أن لدينا من المروى فى (السقط) من شعر شبابه ، ما يقدم الشهادة الصادقة على ما كان من بعد طموحه وعجيب مكابرته وعنف اصراره على اقتحام معركة الوجود .

وأشير هنا الى قصيدته اللامية المشهورة :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف واقدام وحزم ونائل

وفيها يقول مفاخرا متحديا :

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم
باخفاء شمس ضوؤها متكامل
يهم الليالى بعض ما أنا مضمر
ويثقل رضوى دون ما أنا حامل
وانى وان كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل
وأغدو ولو أن الصباح صوارم
وأسرى ولو أن الظلام جحافل

وإن كان في لبس الفتى شرف له ... فما السيف إلا غمده والحمائل

ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي ... على أنني بين السماكين نازل

لدي موطن يشتاقه كل سيد ... ويقصر عن إدراكه المتناول

تنافس يومي فيّ أمسي تشرفا ... وتحسد أسحاري علي الأصائل

هكذا يبدو وكأن الدنيا لا تتسع له لفرط طموحه واعتداده بمواهبه . وهو يلقانا في تلك المرحلة من شبابه معرضا بخصوم له لا نعرفهم ، وأغلب الظن أن يكون من بين شبان حلب الطامحين من ضاقوا بما استأثر به من نباهة وشهرة ، فحاولوا الغض من قدره ليفسح أمامهم فرصة الظهور . وأبو العلاء يتحداهم بمثل ما سمعت في اللامية ، وبمثل قوله في السقط :

تعاطوا مكاني وقد فتهم ... فما أدركوا غير لمح البصر

وقد نبحوني وما هجتهم ... كما نبح الكلب ضوء القمر

[illegible]

أشرقها [illegible] ... [illegible]

[illegible] النجم [illegible] ... [illegible]

رويدك أيها العاوي ورائي ... لتخبرني : متى نطق الجماد

أأخمل والنباهة فيّ لفظ ... [illegible]

وكم من طالب أمـدى سيلقى دوين مكانى السبع الشـدادا
يؤجج فى شعاع الشمس نارا ويقـدح فى تلهبهـا زنادا
ويظهـر لى مودته مقـالا ويبغضنى ضميرا واعتقـادا
فلا وأبيـك ما أخشى انتقاصا ولا وأبيك ما أرجـو ازديادا
لى الشرف الذى يطـأ الثريا مع الفضل الذى بهر العبادا
ولو ملأ السهى عينيـه منى أبرّ على مدى زحـل وزادا
أفلّ نوائب الأيام وحـدى اذا جمعت كتائبها احتشـادا
ولى نفس تحـل بى الروابى وتأبى أن تحـل بى الوهادا
تمد لتقبض القمـرين كفّـا وتحمـل كى تبذّ النجم زادا

* * *

ورائى أمام والأمام وراء اذا أنا لم تكبرنى الـكبراء
بأى لســان ذامنى متجاهل علىّ ، وخفق الريح فىّ ثنـاء
تكلم بالقول المضلل حاسـد وكل كلام الحاسـدين هراء
أتمشى القوافى تحت غير لوائنا ونحن على قوالهـا أمـراء
وما سلبتنا العـزّ قط قبيلة ولا بات منـا فيهم أسراء
ولا سار فى عرض السماوة بارق وليس له من قومنـا خفـراء

على أنه لم يغفل مع ذاك التحدى ، عما حـوله من ضـلال المقاييس واختلال الموازين وزيف القيم ، مسجلا من ذلك العهد، ادراكه لفساد العصر وهزل الدهر ، فذلك حيث يقول فى فخريته اللامية :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا
تجاهلت حتى ظـن أنى جاهـل

فواعجبا كم يدعى الفضل ناقص
ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل
اذا وصف الطائىّ بالبخل مادر
وعير قسّاً بالفهاهة باقل
وقال السهى للشمس أنت خفية
وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادل
فيا موت زر ان الحياة رخيصة
ويا نفس جِدى ان دهرك هازل

* * *

وبدا أن القدر أملى له حينا ، فمضى فى شبيبته ملء الزهو والطموح ، وواتته شاعريته فلم يدع غرضا من أغراض الشعر المعروفة الى عصره الا نظم فيه ، على مذهب الفحول السابقين : مدح لغير تكسب ، وهنأ بالعروس والولد ، ورثى وهجا ، وتغزل وافتخر ، على تفاوت فى مدى العناية بكل ذلك . واتصل بالحياة العامة عن قرب ، فشغل بالمعارك الدائرة بين العرب والروم ، وقال فيها قصائد حماسية ، مطولة رنانة ، وعزف للأبطال أناشيد النصر :

مكلف خيله قنصَ الأعادى ... وجاعل غابه الأسل الطوالا
تكاد قسيه من غير رام ... تمكن فى قلوبهم النبالا
تكاد سيوفه من غير سَلٍّ ... تجدّ الى رقابهم انسلالا
اذا سقت السماء الأرض سحبا ... سقاها من صوارمه سجالا
ويضحى والحديد عليه شاك ... وتكفيه مهابته النزالا
ولولا ما بسيفك من نحول ... لقلنا أظهر الكمد انتحالا

يذيب الرعب منه كلّ عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

حفظت المسلمين وقد توالت سحائب تحمل النوب الثقالا

بوقت لا يطيق الليث فيه مساورة ولا الصنديد اختيالا

* * *

أيوعدنا بالروم ناس وانما

هم النبت والبيض الرقاق سوام

كأن لم يكن بين المخاض وحارم

كتائب يشجين الفلا وخيام

ولم يجلبوها من ورا ملطية

تصدع أجبال بها واكام

بيوم كأن الشمس فيه خريدة

عليها من النقع الأحم لثام

كأنهم سكرى أريق عليهم

بقانا كئوس ملؤهن مدام

فأضحوا حديثا كالمنام وما انقضى

فسيان فيه يقظة ومنام

* * *

فلا قول للأضراب والطعن عندنا

ولا راسل الا ذابل وحسام

فان [illegible] المجروح تواسى بجراحه

وان لم [illegible] متنا ونحن كرام

فلسنا وان كان البقاء محببا

بأول من أخنى عليه حمام

فلمـــا تجلى الأمر قالوا تمنيـــا
ألا ليت أنا فى التراب رمـــام

وراموا التى كـــانت لهم واليهم
وقد صعبت حـــال وعـــزّ مرام

وغلنـــوك ممن يطفىء البرد نارَه
اذا طلعت عند الغروب جهـــام

وأنك تثنيها قبـــالة « جلق »
متى لاح برق واستقل غمـــام

وقالوا : شهور ينقضين بغـــزوة
وما علموا أن القفول حـــرام !

* * *

ولدينا كذلك من شعره فى مرحلة الشباب ، ما يشهد بأنه كان يسرف فى أخذ نفسه بالتفتح للدنيا والاقبال على الحياة ، ويفرض عليها أن تأخذ فى فنون اللهو والطـــرب ، الى جانب ما تعلقت به من فنون الجد وما كان يستهويها من طلب العلم والمجد .

ففى سقط الزند — ديوانه الأول — نسمعه يشدو بذكريات لهو ، ويصف احدى لياليه قائلا :

رب ليـــل كأنه الصبح فى الحسـ
ـن وان كان أســـود الطيلسان

قد ركضـــنا فيه الى اللهـــو حتى
وقف النجـــم وقفـــة الحيران

وكأنى ما قلت والبدر طفـــل

وشباب الظـلام فى العنفوان :

ليلتى هـــذه عروس من الــز

نج عليهـــا قلائد من جمـــان

هرب النوم من جفونى فيهـــا

هربَ الأمن من فؤاد الجبـــان

وكأن الهـــلال يهـوى الثريا

فهمـا للوداع معتنقـــان

وسهيل كوجنـــة الحب فى اللو

ن ، وقلب المحب فى الخفقـــان

يسرع اللمح فى احمرار كما تسر

ع فى اللمح مقـــلة الغضبان

ثم شاب الدجى فخاف من الهج

ر فغطى المشيب بالزعفـــران

ولا يخطئنا فيها حِسُّ التحدى ، بهذه الصـــور المرئية التى لا سبيل لمثله الى ادراكها بالبصر المغلق ، كما لا يخطئنا فيهـــا شعوره المرهف بسواد الظلمة فى أسود الطيلســـان ، وعروس من الزنج ، وعنفوان شباب الظـــلام ، وكذلك تشبثه بذكرى اللون الأحمر الذى وعاه منذ ألبسوه فى علة الجدرى الثوب المصبوغ بالزعفران .

وتكاد هـــذه الملاحظ ، تميز ما فى ديوانه من شعر الوصف ، وصور التشبيه والاستعارة .

وماذا عن الحب ؟

فى (سقط الزند) نسمعه يغنى للحب ، ويشدو بغزليات تذوب رقة وشجوا ووجدا ، ومنها ما يستأثر بالقصائد كاملات .

ولا نعلم من أخباره ، ما ينم عن حبه لامرأة ما ، وليس فى آثاره اشارة من قرب أو بعد الى أنه عانى التجربة فى الواقع المادى . ونقول مع ذلك ، ان شعره فى الغزل معبر عن معاناة وجدانية صادقة لظمأ الى الحب ، وقد أعوزه المحبوب ففاضت أشواقه تنفيسا عما يكابد من ظمأ ولهفة ، وأنقل من شعره فى سقط الزند :

أسالت أتىّ الدمع فوق أسيل
ومالت لظل بالعراق ظليل

أيا جارة البيت الممنّع أهله
غدوت ومن لى عندكم بمقيل

لغيرى زكاة من جِمال وان تكن
زكاة جَمال فاذكرى ابن سبيل

وأرسلت طيفا خان لمّا بعثته
فلا تثقى من بعده برسول

أسرتِ أخانا بالخداع وانه
يعد اذا اشتد الوغى بقبيل

فان تطلقيه تملكى شكر قومه
وان تقتليه تؤخذى بقتيل

وان عاش لاقى ذلة ، واختيـــاره
وفاة عزيز لا حيـــاة ذليـــل
وكيف يجـــر الجيش يطلب غارة
أسير" بمجرور الذيول كحيـــل

* * *

ان كان طيفك برًّا فى الذى زعما
فان قومك ما بروا لهم قســـما
آلى أميرك لا يسرى الخيال لنا
اذا هجعنا ، فقد أسرى وما علما
وكم تمنت رجال فيـــك مغضبة
أن يبصروه فلم يَظهر لهم سقما
نشوف من آل هند بارقا أرجا
كأنما فضٌ عن مسك وما ختما
اذا أطـــل على أبيـــات بادية
قـــام الولائد يستقبسنه ضرمـــا

* * *

ان كنت مدعيـــا مـــودة زينب
فاسكب دموعك ياغمام ونسكب
فمن الغمــــائم لو علمت غمامة
سوداء ، هدباها نظير الهيـــدب
بالجفن بارزت القلوب وانمـــا
بالنصل يبرز كل شهم محـــرب

كم قبلة لك في الضمائر لم أخف
منها الحسيب لأنها لم تكتب

ومتى خلوت بها من آجلك لم أرع
فيهـا بطلعـــة عاذل من مرقب

ورســـول أحـــلام اليك بعثتــه
فأتى على يأس بنجح المطـــلب

وكأن حبك قال : حظك فى السرى
فالطم بأيدى العيس وجه السبسب

هي اذن مواجد محروم من الحب ، ورؤى خيال لا سبيل له الى سواها ، وانه ليعلم أن حظه فى السرى وأحلام الخيال ورؤى المنام .

وليس صحيحا أن أبا العلاء فيما عالج من شعر الغزل ، كان — على ما وهم واهمون — يتكلف النظم فى كل أغراض الشعر المعروفة الى عصره ، اعلانا عن اقتداره على الصنعـــة ، دون أن يكون لغزله حظ من الصدق الوجدانى .

كلا .. فليس أبو العـــلاء بالذى يزيف وجـدانه أو يقول مالا يجد ، وانما قال ما قال عن معاناة صادقة لحرمان قاس ، ولم يكذبنا القول بل كشف عن وطأة احساسه باللهفة الى ما لا يدرك ولا ينـــال الا بالخيال ، ورفع نجواه الى حبيبة لاحظ له منهـــا

الا الوهم ، والا التشبث بطيف يلم بالمدنف المشوق ، ثم يسرى بعيدا الى حيث لا مطمع ولا رجاء :

يا غـرة الحى الكثير شـياته
ما تأمـرين لمـدنف متمـائل
لاقاك فى العـام الذى ولّى فلم
يسـألك الا قبلة فى قابل
ان البخيـل اذا يمد له المدى
فى الجود ، هان عليه وعد السائل
وسألت ما بين العقيق الى الغضا
فجزعت من أمد النوى المتطاول
جهـل" بمثلكِ أن يزور بلادنا
يختـال بين أسـاور وخلاخل

* * *

منكِ الصدود ومنى بالصدود رضى
من ذا علىّ بهذا فى هواك قضى
بى منك مالو غدا بالشمس ماطلعت
من الكآبة ، أو بالبرق ما ومضا
جربت دهرى وأهليـه فما تركت
لى التجارب فى ود امرىء غرضا
اذا الفتى ذم عيشـا فى شبيبته
ماذا يقول اذا عصر الشباب مضى

ولا نرفض أن تكون هذه الغزليات من الشعر الرمزى الذى يخفى وراء ظاهر لفظه دلالة مستورة عـلى أمنيـات تعلق بهـا أبو العلاء فى شبابه ، كأن تكون هذه الحبيبة رمزا الى الدنيـا ، أو الى المجد ، أو الى نعمة البصر التى حرم منها ، أو .. أو ...

لكن تبقى مع هذا كله دلالة ايثاره لهـــذا الأسلوب ، على ما كان يقاسى من مواجد الحب . وهى دلالة لا تكشف عنهـا قصائده المفردة المغزل فقط ، بل تشاركها فيها مطالع قصائد أخرى فى غير الغزل ، كاستهلاكه لبعض مدائحه فى ديوانه الأول ، بمثل قـوله :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر
لعل بالجـزع أعوانا على السهر

ويا أسيرة حجليهـا أرى سفها
حملَ الحلىّ لمن أعيا على النظر

ما سرت الا وطيف منكِ يتبعنى
سرًى أمامى ، وتأويبا على أثرى

لو حطّ رحلى فوق النجم رافعه
ألفيت ثمَّ خيالا منك منتظرى

يود أن ظـلام الليـل دام له
وزيد فيـه سواد القلبوالبصر!

واستهلاله قصيدة اخوانية ، بعث بهـا الى الشريف موسى ابن اسحاق ، بقوله :

[illegible]

وهاجته الجنوب لوصل حيّ [illegible]

[illegible]

ونحس فى أغانيه للحب نغمة الحزن الكامن فى أعماقه ،
وصدى اليأس المنطوى تحت [illegible]

(١) ألاح الرجل : أشفق ، والبرق : لمع . والنضو : الذى [illegible]

(٢) الطروح : البعيدة النائية .

الخيال ، متحـدیا بذلك واقعـه ، وملتمسا لظمئـه من سراب الوهم ريا !

واذا كنا نعجب لما سمعنا فى غزلياته من حـديث مثـله عن السيف والغمد والحمائل ، وعن الغارة والجيش ، والأسير الذى يعد اذا اشتد الوغى بقبيل ، فأعجب منه أن نراه قد نظم ديوانا فى « الدرعيات » — ملحقا بسقط الزند — وهى من عدة الحرب التى لا مجال له فيها بحال !

ماضيا فى ذلك ومثـله على غلوائه ، ومصرا على أن يخوض معركته بكل ما استطاع ، أو تكلف ، من مكابرة وعناد ...

ومضات كاشفة

نلوم على تبلدها قلوبا   تكابد من معيشتها جهادا
(سقط الزند)

أكان أبو العلاء ، فى لطف حسه وصفاء وجدانه وعجيب فطنته ، بحيث يجهل عقم هذه المكابرة التى تجعله يقول انه يحمد الله على العمى ، أو يقول :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم
وأسرى ولو أن الظلام جحافل

كلا ...

وانما كان يجلجل بهذا الادعاء رجاء التشاغل عن واقعه المر، وحمل نفسه على المقاومة والتجمل بالصبر على مالا حيلة له فيه . أو لعله كان يحاول بهذا الضجيج الصاخب ، أن يصم سمعه عن صوت فى أعماقه يؤرقه ليل نهار :

أما آن أن تكف عن هذا العناد العقيم والمكابرة الخائبة ؟

وقد عبر عنه ، دون تنبه منه ، مطلع قصيدته الحماسية فى الجهاد ضد الروم :

لقد آن أن يثنى الجموحَ لجام
وأن يملك الصعبَ الأبىَّ زمام

وعبرت عنه كذلك ، نفثات حزينة أفلتت منه واشية بما كان يطوى فى أعماقه ، وومضات كاشفة عن مكتوم قهره وأساه .

وأكثر ما تلقانا هذه الومضات ، فى مراثيه التى صدرت عنه ناضحة بالمرارة والشجن واليأس ، مثل مراثيه فى أبويه — وستأتى بعد — ومرثيته فى جعفر بن على بن المهذب ، وقد كان من رفاق صباه ، مع صلة مصاهرة ربطتهما ، بزواج عمة أبى العلاء من أبى محمد بن المهذب ، وفى هذه المرثية يقول :

كان الأسى فرضا لو ان الردى
قال لنا : افدوه ، فلم نفده

يا دهر يا منجز ايعاده
ومخلف المأمول من وعده

أى جديد لك لم تبله
وأى أقرانك لم ترده

تستأسر العقبان فى جوها
وتنزل الأعصم من فنده

أرى ذوى الفضل وأضدادهم
يجمعهم سيلك فى مده

تجربة الدنيا وأفعالها
حثت أخا الزهد على زهده

ان زمانى برزاياه لى
صيرنى أمرح فى قده

لو عـرف الانســان مقداره

لم يفخـر المولى على عبـده

أمس الذى مرَّ على قـربه

يعجـز أهـل الأرض عن رده

أضحى الذى أُجِّـل فى سِنه

مثل الذى عوجل فى مهـده

ولا يبـالى الميت فى قبره

بذمه شيع أم حمـده

والواحـد المفرد فى حتفـه

كالحاشـد المكثر من حشـده

وحـالة البـاكى لآبائه

كحـالة البـاكى على ولده

ما رغبـة الحىّ بأبنـائه

عمـا جنى الموت على جـدّه

تدعو بطول العمـر أفواهنـا

لمن تنـاهى القلب فى وده

يسر ان مُدّ بقـاء له

وكل ما يكره فى مـدّه !

ومرثيته المشهورة فى الفقيه القاضى أبى حمزة التنوخى ، وهو من بنى عمومته ورفاق صباه :

غير مجد فى ملتى واعتقـادى

نوح باك ولا ترنم شـاد

وشبيه صوت النعي اذا قيـ

ـس بصوت البشير فى كل ناد

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ

ـت على فرع غصنها الميّاد

صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ

ـب فأين القبور من عهد عاد

خفف الوطء ما أظن أديم الـ

ـأرض الا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وان قدم العهـ

ـد هو ان الآباء والأجداد

سر ان اسطعت فى الهواء رويدا

لا اختيالا على رفات العباد

رب لحد قد صار لحدا مرارا

ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين

فى طويل الأزمان والآباد

تعب كلها الحياة فما أ * عجب الا من راغب فى ازدياد

كنت خل الصبا فلما أراد البين وافقت رأيه فى المراد

وخلعت الشباب غضا فيا ليتك أبليته مع الأنداد

فاذهبا خير ذاهبين حقيقين بسقيا روائح وغواد

ومراث لو انهن دموع لمحون السطور فى الانشاد

وكتب الى بعض اخوانه ، معتذرا عن قعوده عن تعزيتـه فى فقيد من أهله :

يا راعى الود الـذى أفعـاله
تغنى بظـاهر أمرها عن نعتهـا

لو كنتُ حيًّا ما قطعتك فاعتذر
عنى اليـك لخـلة بِأَمَتِّهـا

فالأرض تعـلم أننى متصرف
من فوقها ، وكأننى من تحتهـا

غدرت بى الدنيـا وكل مصاحب
صاحبته غدر الشمال بأختهـا

شُغِفتْ بوامقها الحريص وأظهرت
مقتى لما أظهـرته من مقتهـا

لا بد للحسناء من ذام ولا
ذام لنفسى غير سيىء بختهـا

ولقد شركتك فى أساك مشـاطرا
وحللت فى وادى الهموم وخبتها

* * *

ومنا من كان يظن أن مراثيه تنفرد بهذا الايقاع الحزين ، وأن غيرها من شعر شبابه ، كله طموح واستعلاء ، وزهو واعتداد . وأعترف بأننى كنت ، الى عهد قريب ، من بين الذين غلب عليهم ذلك الظن ، ثم لما عدت أصغى من جديد الى صوت أبى العلاء فى ديوانه (سقط الزند) أدركت أننا كنا على خطأ ، حين فاتنا لمح

الومضات الكاشفة عن الجرح الغائر فى أعماق وجدانه ، لا فى مراثيه فحسب ، ولكن كذلك فى مدائحه وحماسياته ، وغزلياته وفخرياته ، وأكاد أقول فى كل قصيدة من شعر شبابه .

وانما شغلنا عنها ببريق طموحه الساطع ، وتاهت منا فى ضجيج مكابرته واستعلائه ، وعذرنا هنا أن أبا العلاء نفسه ، حاول صادقا مخلصا ، أن يشغل بهذا الضجيج عن مكابدته النفسية لدواعى اليأس والقنوط ، وهواجس الخيبة والقهر ، لولا أن أفلتت من أعماقه ، من حيث يدرى ولا يدرى . وقد مرت بك أبيات من الفخرية ، التى استهلها بالسؤال العجيب :

أفوق البدر يوضع لى مهاد
أم الجوزاء تحت يدى وساد !

فاسمع اذن مافيها من حسرة على ظمئه وحرمانه ، لا يخفيها أن ردّ هذا الحرمان الى أن موضعه فوق السحاب ، حيث لا سبيل الى قطرة من رى :

كأنى حيث ينشا الدجن تحتى
فها أنا لا أُطَلّ ولا أُجاد

أأخمل والنباهة فىّ لفظ
وأقتر والقناعة لى عتاد

وألقى الموت لم تخد المطايا
بحاجاتى ، ولم تجف الجياد !

وأبياته التى باهى فيها بشرفه الذى يطأ الثريا وفضله الذى

بقي كالعبادة وأعلن أنه يفضل ... الأيام ... الجاهلية لكنا بها التي ... قد استهلت بهذا الاستهلال المنجاب :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا
فعاند من تطيق له عنادا

وما نهنهت عن طلب ولكن
هي الأيام لا تعطي قيادا

نلوم ... على تبلدها وقلوب
تكلّف فوق ... معيشتها اجتهادا

اذا : ما النار لم تطعم ضراما
فأوشك أن تمر بها رمادا

ولما أن تجهمني مرادي
جريت مع الزمان كما أرادا

وهوّنت الخطوب علي حتى
كأني صرت أمنحها ودادا

أأنكرها ومنبتها فؤادي
وكيف تنكر الأرض القتادا

وقصيدته النونية التي سمعته فيها يصف ليلة لهو كأنها عروس من الزنج ، مطلعها هذا الجوار الحزين :

عللاني فإن بيض الأماني
فنيت والظلام ليس بفان

كم أردنا ذاك الزمان بمدح
فشغلنا بذم هذا الزمان

وفيها يقول معتذرا الى الشريف أبى ابراهيم موسى :

فاقتنع بالروىّ والوزن منى

فهمومى ثقيلة الأوزان

من صروف ملكن فكرى ونطقى

فهى قيد الفؤاد قيد اللسان

ولاميته المشهورة فى الفخر ، لم تخل من كلمات تنم عما حاول أن يطوى من هموم ، تحت ركام التبلد واللامبالاة :

يهم الليالى بعض ما أنا مضمر

ويثقل رضوى دون ما أنا حامل

وطال اعترافى بالزمان وأهله

فلست أبالى من تغول الغوائل

فلو بان عضدى ما تأسف منكبى

ولو مات زندى ما بكته الأنامل

ويستهل أخرى من قصائد التحدى ، بهذا الأنين الجريح :

ذلت لما تصنع أيامنا نفوسنا تلك الأبيّاتُ

تجنى خمور الهمّ مالم تكن تجنى الخمور العنبيات

ويروون أنه سئل اجازة هذا البيت :

شغلى ببعدى عنك يشغلنى ويصدنى عن كل أشغالى

فصدرت عنه هذه الأبيات ، مشحونة بهواجس اليأس ، صارخة بلهاث الظمأ :

ما يوم وصلك وهـو أقصر من

نفس ، بأطـول عيشـة غالى

علقت حبالَ الشمس منـك يدى

وجـديدها فى الضعف كالبـالى

وأردتُ ورد الوصـل من قمر

فصـدرتُ عنـه كوارد الآل

وطلبت عندك راحـة ، وعلى

قـدر اعتقـادى كان ادلالى

وظننت فى البلوى منـاى ولم

تكن المنيـة لى على بال

ما زلت أبلغ ما هممت به

حتى هممت بكوكب عال

ان فات سلوان الحيـاة فكل الناس بعد مماته سـال

يا جنة عرضت معجـلة

فاخترتهـا وعصيت عذّالى

يضحى الرضاب لأهلهـا بدلا

من بارد فى الخـلد سلسـال

ان لم تدومى صح فى خـلدى

أنى بنار جهنم صـال

قلبى أعاتب فهو يلزمنى

أبدا تكلف هـذه الحـال !

* * *

واذن فلم يكن أبو العلاء فى معركته الأولى ، قد كذبته نفسه أو أخطأه حس ما تكابد من هم وقهر .

كما لم تكن أشعاره فى التحدى والمكابرة ، من الزيف الوجدانى ...

وانما الذى يشهد به ديوانه الأول ، أن الشاب الموهوب الطامح حاول ما وسعه الجهد أن يقاوم الاستسلام الى واقعه ، والرضوخ لما كبلته به محنته من قيود تشل انطلاقه وتلجم طموحه دون أن يخونه فى هذه المحاولة وعى ذاته . وبقدر ما كان صادقا فى شعره المعبر عن رغبته المخلصة فى الاستعلاء واصراره العنيد على المكابرة والتحدى ، كان صادقا كل الصدق فى تلك الفلتات الكاشفة عن مطوى أشجانه ، الصادرة عن فؤاد يجرع خمور الهموم :

نلوم على تبلدها قلوبا
تكابد من معيشتها جهادا !

موت الأب

كأن دعـــاء الموت باسمك نـكزة
فرت كبدى ، والسم ينفث في أذنى
(سقط الزند)

مضى الحائر فى معركته منتظرا ما تأتى به الأيام .

وجاءته الأيام بما انتظر ، من حيث يدرى ولا يدرى :

لقد توقع بحسه المرهف أن فى جعبتها سهاما أخرى ، لكنــه لم يكن يدرى فى أى موضع يقع السهم هذه المرة .

حتى مات أبوه عبد الله

فنفذت الطعنة الى صميم كيانه ، وفقد الشـــاب الضرير أبا رحيما ومعلما صديقا ، وحرم بفقده من كان يعينه على محنتــه ، ويمنحه زادا من طاقة المقاومة والاحتمال .

* * *

ومتى مات أبوه ؟ وأين ؟

اختلفت الروايات فى ذلك اختلافا بعيدا ، وهى فى جملتها ترجع اما الى قول « يا قوت الحمــوى » فى معجم الأدباء : « أنه توفى بحمص سنة ٣٧٧ هـ »

أو الى قول ابن العديم فى (الانصاف والتحرى) : « وتوفى أبو محمد عبد اللهبن سليمان والد أبى العلاء بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة »

وبين الروايتين فرق شاسع ، لا يهون أن نمر به دون أن نبذل محاولة للاهتداء فيه الى ما نطمئن به الى أننا لم نفقد الشعاع المضيء لحياة أبى العلاء ، فى تلك المرحلة الدقيقة من عمره ، وهو يخوض معركته الأولى مع الأيام ، مضغوطا بين طموح جامح وواقع مثبط مخذل ...

ومصنفو كتاب (تعريف القدماء بأبى العلاء) لم يفتهم أن يلحظوا بعد ما بين الروايتين ، لكنهم فيما يبدو اكتفوا بترجيح رواية « ياقوت » حيث نقلوها بغير توقف أو تعليق ، فلما وصلوا الى رواية « ابن العديم » لم يدعوها تمر كسابقتها ، بل علقوا عليها فى الهامش بما نصه :

« كذا ، وانما توفى سنة ٣٧٧ بحمص كما نص ياقوت »

دون أن يتجشموا مشقة الفحص لكلتا الروايتين

ودون أن يشيروا من قريب أو بعيد الى وجه ما ، لهذا الترجيح الذى ساقوه بصيغة القصر الحاسمة .

ويشق علينا أن يحسم مثل ذلك الخلاف بهذه البساطة ، مع ما نعلمه من تخصص « ابن العديم » فى تاريخ حلب وأعيانها ، وتفرغه لتصنيف كتاب جامع مفرد عن أبى العلاء وأسرته ، مما يجعله أولى بالثقة من « ياقوت » الذى كان اهتمامه بأبى العلاء ،

محدودا بالقدر الذى تتسع له ترجمته للحشد الكاثر من الأدباء الذين عرف بهم فى معجمه الكبير .

ثم ان « ياقوت » فيما روى من أخبار أبى العلاء وأسرته ، يرسل مروياته غالبا بلا اسناد ، على حين نرى « ابن العديم » يحرص على ذكر أسانيده . وأكثر من روى عنهم ، من بنى سليمان ، أو من بين الذين لقوا تلاميذ أبى العلاء ومعاصريه . كما يحرص على تحديد طرق الرواية ، قراءة أو سماعا أو اجازة أو مكاتبة .

ونقول مع هذا ، ان تخصص « ابن العديم » وسلامة منهجه لا يكفيان لترجيح روايته فى وفاة والد أبى العلاء ، مالم تؤيدها قرائن وشواهد يهدى اليها الفحص النقدى للروايتين .

فعلى رواية ياقوت ، يكون أبو العلاء قد امتحن باليتم وهو غلام فى الرابعة عشرة من عمره ، ومؤرخوه قد أجمعوا على أنه بدأ يقول الشعر وهو ابن احدى عشرة أو اثنتى عشرة سنة . فلننظر اذن فى مرثيته لأبيه ، لنرى ما اذا كانت تجربة غلام مراهق ، لم يبدأ نظم الشعر الا قبل موت أبيه بعامين أو ثلاثة ، على أقصى الأجلين ؟

نقمتُ الرضى حتى على ضاحك المزن
فلا جادنى الا عبوس من الدجن

فليت فمى ان شام سنى تبسما
فم الطعنة النجلاء تدمى بلا سن

أبى حكمت فيه الليـــالى ولم تزل
رمــاح المنــايا قادرات على الطعن

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى والجيب والذيل والردن

فياليت شـــعرى هل يخف وقاره
اذا صار أحـــد فى القيــامة كالعهن

وهـــل يرد الحوض الروىّ مبادرا
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى

حِجا زاده من جـــرأة وســماحة
وبعضُ الحجا داع الى البخل والجبن

* * *

على أم دفر غضـــبةُ الله انهــا
لأجــدر أنثى أن تخون وأن تخنى

كعاب : دجاها فرعهـــا ، ونهارها
محيا لها قامت له الشمس بالحسن

رآها سليل الطين والشيب شــامل
لهــا بالثريا والســـماكين والوزن

زمــانَ تولت وأد حــواء بنتهــا
وكم وأدت فى اثر حــواء من قرن

كأن بنيهــا يولدون وما لهـــا
حليل ، فتخشى العار ان سمحت بابن

جهلنا فلم نعلم على الحرص ماالذى

يراد بنـا ، والعـلم لله ذى المن

اذا غيب المـرء استسر حـديثه

ولم تخبر الأفكار عنـه بما يغنى

تضل العقول الهبرزيات رشـدها

ولم يسـلم الرأى القوى من الأفن

وقد كان أرباب الفصـاحة كلما

رأوا حسنا عدوه من صـنعة الجن

* * *

وجـدنا أذى الدنيـا لذيذا كأنما

جنى النحل أصناف الشقاء الذى تجنى

فما رغبتْ فى الموت كُدْرٌ مسيرها

الى الوِرد خمس" ، ثم يشربن من أجن

يصـادفن صقرا كل يوم وليـلة

ويلقين شرا من مخـالبه الحُجْن

ولا قلقاتُ الليـل باتت كأنهـا

من الأين والادلاج بعض القنا اللدن

ضربن مَليعـا بالسنابك أربعـا

الى الماء ، لا يقدرن منه على مَعْن

وما استعذبته روح مـوسى وآدم

وقد وُعِدا من بعـده جنتى عدن

* * *

أمولى القوافى كم أراكَ انقيـادها
لك الفصحاءَ العُرْب كالعجم اللكن

هنيئا لك البيت الجـديد موسـدا
يمينك فيـه بالسـعادة واليمن

مجـاور سَكْن فى ديار بعيـدة
من الحى ، سـقيا للديار وللسكن

طلبتُ يقينـا من جهينـة عنهم
ولن تخبرينى يا جهين سـوى الظن

فان تعهـدينى لا أزال مسـائلا
فانىَ لم أعطَ اليقينَ فأستغنى

وان لم يكن للفضـل ثَم مـزية
على النقص ، فالويل الطويل من الغبن

* * *

أمـرُّ بربع كنتَ فيـه كأنمـا
أمر من الاكرام بالحجـر والركن

واجـلال مغنـاك اجتهادٌ مقصر
اذا السيف أودى، فالعفاء على الجفن

لقـد مسختْ قلبى وفاتك طائرا
فأقسـم ألا يستقر على وكن

يقضّى بقـايا عيشـه ، وجناحه
حثيث الدواعى فى الاقامـة والظعن

كأن دعاء الموت باســـمك نكـزة
فرت جسدى والسم ينفث فى أذنى

ضعفتَ عن الاصباح والليل ذاهب
كما فنى المصباح فى آخـــر الوهن

ومـــا أكثر المثنى عليـــــك ديانة
لو ان حمــاما كان يَثنيه من يُثنى

يوافيكَ من رب العلا الصدق بالرضى
بشـــيرا ، وتلقـــاك الأمانة بالأمن

ويُكنى شــهيدُ المــرء غيرك هيبة
وبقيا ، وان يُسأل شهيدك لا يكنى

يصرح بقول المســـك دونك نفحة
وفعــل كأمواه الجنـــان بلا أسن

يد" يدت الحسنى ، وأنفــاس ربها
تقى ، ولســـــان لا يحرك باللسن

فليتــــك فى جفنى موارى نزاهــة
بتلك السجايا عن حشاى وعن ضبنى

ولو أودعوك الجو خِفنا مَصيفه
ومشتاه ، وازداد الضنين من الضن

فيا قبر واه من ترابك لينـــا
عليـــه ، وآه من جنادلك الخشن

*

فهل أنت ان ناديتُ رمسك سامع
نداء ابنك المفجوع بل عبدك القن

سأبكى اذا غنى ابن ورقاء بهجة
وان كان ما يعنيه ضد الذى أعنى

ونادبة فى مسمعى كلُّ قينة
تغرد باللحن البرىء عن اللحن

وأحمل فيك الحزن حيا فان أمت
وألقك لم أسلك طريقا الى الحزن

وبعدك لا يهوى الفؤاد مسرة
وان خان فى وصل السرور فلا يهنى

* * *

كلا !

ليس هذا حديث غلام مراهق ، ابن أربع عشرة سنة !

ولا هو شعر مبتدىء ، فى مستهل تجربته الشعرية ..

وانما هو صوت رجل ناضج بلا الدنيا وعرف حكم الليالى وأثخنته الجراح ، وأطال التفكير فى محنة وجود مصيره العدم ، وأرهقته الحيرة فى التماس اليقين عما بعد الموت !

صوت نحس فيه نبرات واضحة من صوت أبى العلاء الذى سوف نسمعه بعد بضع سنوات فى عزلته ، رهين محبسيه ، يملى (الفصول والغايات) وديوان (لزوم ما لا يلزم) ، وآثاره الأخرى فى الطور الثانى من حياته .

الا أن يقال ان « أبا العلاء » رثى أباه بأخَرَة ، بعد موته

بسنين ، وهــو فرض مستبعد بشــاهد من نص المرثية ، حيث الحديث عن احتضار الفقيد والليل ذاهب ، وعن وقع النعى على الابن المفجوع ، والسؤال اليائس هل يسمع الراحل النداء ؟ :

كأن دعــاء الموت باســمك نكزة
فرت جسدى والسم ينفث فى أذنى
ضعفتَ عن الاصباح والليل ذاهب
كما فنى المصــباح فى آخــر الوهن
فهل أنت ان ناديت رمسك ســامع
نداء ابنك المفجــوع بل عبدك القن

ومثل ذلك الحديث لا يكون ، الا واللوعة حارة ، والجرح دام ، والعهد بالمصاب جدّ قريب ...

* * *

ولا يتم جلاء الموقف ، دون أن نفحص رواية « ياقوت » محاولين التماس وجه الشبهة فى قوله ان والد أبى العلاء توفى بحمص سنة ٣٧٧ هـ .

ففى هذه السنة ، توفى أبو الحسن سليمان جد أبى العلاء .

وفى حمص كانت وفاته وهو على قضائها ، ودفن ظاهر باب الرستن ، كما نص على ذلك « ابن العديم » .

فلعل الأمر تشابه على « ياقوت » لوهم آخر وقع فيه ، حين ذكر أن جد أبى العلاء « ولى القضاء بحمص وبها مات فى سنة ٢٩٠ هـ » وهــو وهم تنبه اليه مصــنفو (تعريف القــدماء بأبى العلاء) وقابلوه على ما فى (الخريدة) لابن العمــاد ، من

ولاية جد جد أبى العلاء للقضاء فى سنة ٢٩٠ هـ . واسم الجد أيضا : أبو الحسن سليمان ، بن أحمد بن سليمان بن داود ابن المطهر .

وبقى أن نقابله على ما فى (الانصاف) لابن العديم ، من أن بعض الناس قالوا ان جد الجد ولى قضاء المعرة فى سنة ٢٩٠ هـ ، وبعضهم يقول ان الذى تولى القضاء سنة ٢٩٠ هو ابنه أبو بكر محمد ، جد والد أبى العلاء .

ثم نضيف الى ذلك ما فى (الانصاف) أيضا ، من أن أبا العلاء أخذ الحديث عن أبيه وجده سليمان بن محمد ، فكيف يأخذه عمن « مات فى حدود الثلاثمائة » قبل مولده بثلاث وستين سنة ؟

* * *

من هذا كله نطمئن الى قول ابن العديم ، بوفاة عبد الله ابن سليمان سنة ٣٩٥ هـ . وكانت وفاته بمعرة النعمان ، بشاهد من نص المرثية ، عن جوار أبيه لسكان ديار بعيدة من الحى ، يعنى سكان القبور ، وليس أبعد منهم دارا وان دُفنوا فى الحى وأقاموا ..

إحدى الراحتين

تخيرتُ جهدى لو ملكت خيـــارا

وطِرت بعزمى لو أصبت مطـــارا

(سقط الزند)

مات أبوه ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، قـد استنفد طاقته فى تحدى محنته والاستعلاء عليها ، وأرهقه التمزق بين شد الطموح وعجز الوسيلة والأداة ، فبدأ يفيق بالصدمة من أكاذيب المنى وسكرة الوهم ، ويتهيأ للتطور الخطير الذى جدّ على حياته بعد ذلك ببضع سنين .

ولعله بدأ عقب موت أبيه ، يفكر فى أن يلقى سـلاحه ويلزم موضعه ويقر بأن العمى نقمـة لا نعمـة ، لكنه تردد فى الأمر ليبلو نفسه ، وقد أشفق من أن تكون رغبته فى الاستسلام طارئة بفعل الصدمة ، وأن يخونه وهم الراحة باليأس كمـا خانه وهم الراحة بالأمل .

كان يخشى أن تكون فى النفس بقية من أثر محـاولته التى طالت ، وأن يظل فى مسمعه صـدى من شعره الأول الذى مضى فيه على غلوائه يحاول أن يقنع نفسه ، قبل أن يقنع سواه ، بأنه

مستطيع أن يرقى الى ما فوق النجم ، حيث لا يبلغ شأوه منافس، أو يصل اليه نباح حاسد .

ولقد حاول قدر استطاعته أن يتجلد للصدمة الجديدة ، وأن يطوى جرحها فى أعماقه المثخنة بالجراح ، كيما يستأنف صراعه مع الدنيا ، فما كان من السهل أن يئد طموحه بغتة ، وأن يقهر ما لبشريته من أشواق سيظل يكابدها ما عاش !

بل ليس ببعيد ، أن تكون الصدمة الجديدة قد أرهفت وهم تجلده ، وغشيه من دوارها ما خيل اليه أنه قادر على احتمال كل ما تأتى به الدنيا من أصناف الرزايا ، وأعانه على ذلك أن أمه بقيت له ، ولديها يجد العوض عمن فقد ، ويلتمس العزاء عما لقى من عنت الأيام والليالى ...

وفى هذه الفترة من أخريات القرن الرابع ، بدأ يفكر فى الرحلة الى بغداد ، لعله يختبر طاقته على مجاهدة نفسه أو مجاهدة الدنيا .

وأطال التفكير قبل أن يجمع أمره ويشد الرحال الى دار السلام ، فى أخريات عام ٣٩٨ هـ .

واستأذن أمه فى السفر ، فأذنت فيه بعد أن أيقنت أنه جاد فى عزمه . وانتفض قلبه وهو يفارقها مودعا ، كأنما حدثه القلب أنه فراق لا لقاء بعده .

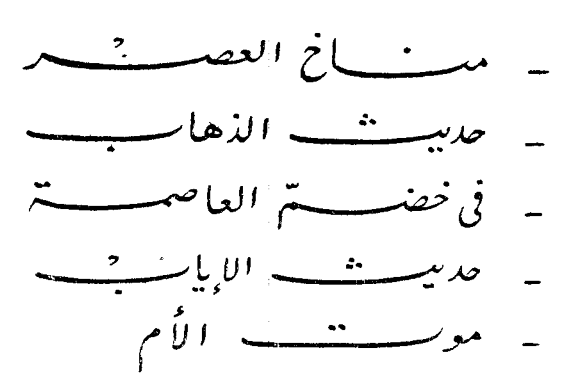
وودع أهل المعرة ، وكلهم عشيرة وجيران .

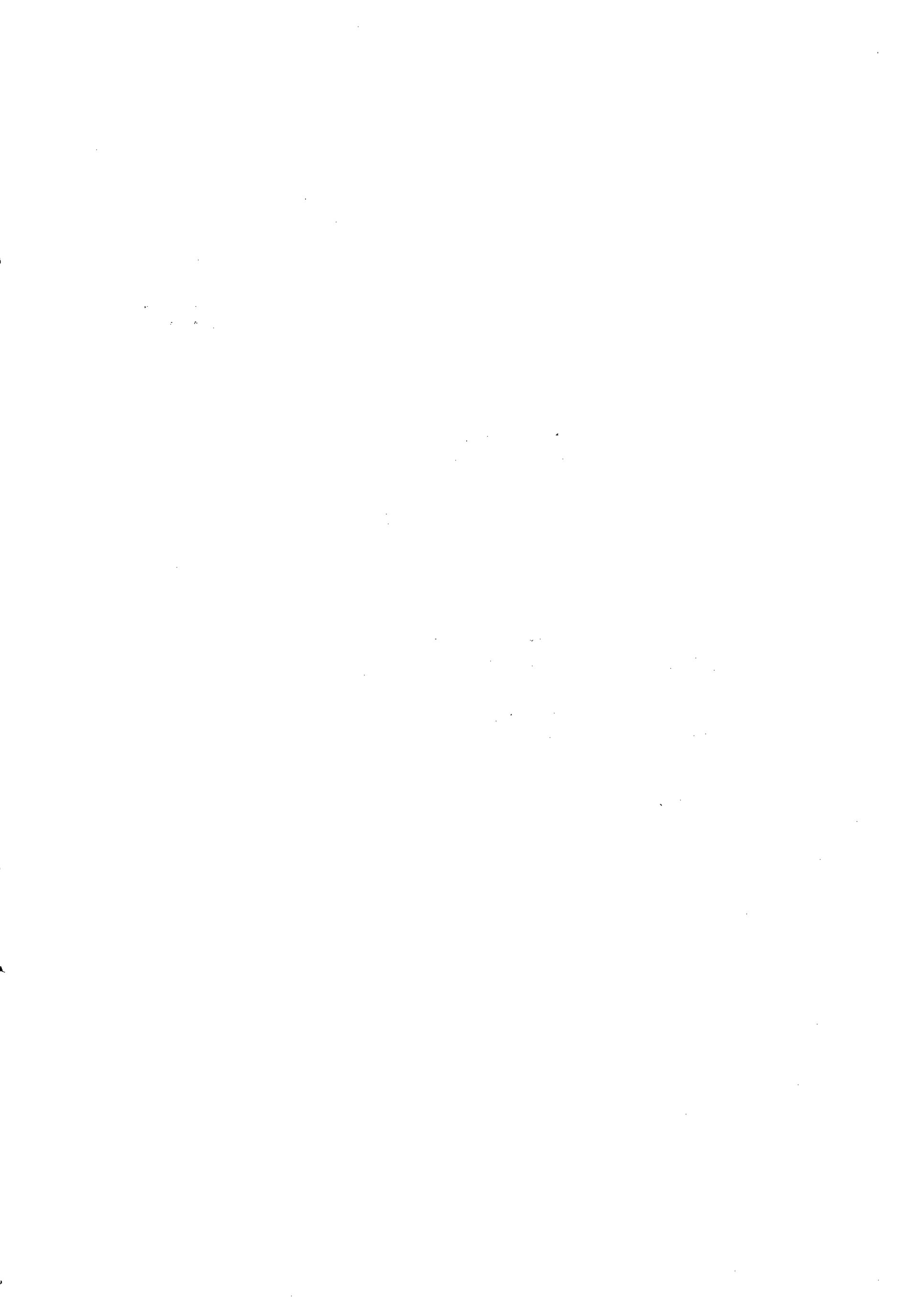
وخلف مهد مولده ومدرج صباه ، وما من أحد يدرى ماذا يستقبل فى غده ، أو يعلم المخبوء له فى الغيب المضمر ...

الفصل الثالث

في مفترق الطريق

رحلة إلى بغداد





مناخ العصر

هذى بضاع الناس معروضة
فخالطوا العالم أو فارقوا

(اللزوميات)

هنا تتمهل طويلا عند مفترق الطرق ، لنرصد كل خطوة من تلك الرحلة التى عاد منها وقد أصدر على نفسه قرارا صارما بالعزلة عن الدنيا ، والحرمان من كل متعها المادية .

وفى حياة كل أديب — وأكاد أقول : كل انسان — حادث حاسم يغير مجرى حياته ويحتكم فى توجيه مصيرها .

ومن قديم سمعنا أن « امرأ القيس » قال حين بلغه مصرع أبيه : اليوم خمر وغدا أمر !

أما أبو العلاء فليس فى حياته خمر ولا ثأر ، وانما الذى فيها رحلة الى بغداد ، كانت بصريح عبارته وشهادة سلوكه وأقوال مؤرخيه : الحد الفاصل بين شطرين من حياته ، انسانا وأديبا .

شطرين مختلفين ، شتان ما بينهما .

والاخباريون على كثرة من عنى منهم بالترجمة لأبى العلاء ، وعلى كثرة ما جاءوا به من أخباره وما رصدوا من آثاره ، لم

يعنوا بهذا الحادث الخطير فى حياة أديبنا الأكبر ، بل ان منهم من لم يشر اليها اطلاقا ، كأبى منصور الثعالبى والباخرزى ، وكلاهما من عصره ، والسمعانى وابن الجوزى وقد عاشا فى القرن السادس ، قريبا من عصره .

أما الذين أشاروا اليها ، فبعضهم جاء بها خبرا عابرا فى سياق الترجمة لأبى العلاء ، والتقط آخرون بعض أخبار عنها ، لا من حيث دلالتها على خطر الرحلة ، ولكن من حيث شهادتها لذكائه وحفظه ، أو صلتها بعقيدته . وجمع ابن العديم — المتوفى سنة ٦٦٠ هـ — ما تفرق من تلك الأخبار والمرويات ، فى فصل من كتاب (الانصاف والتحرى) عنوانه : « فى ذكر رحلته الى بغداد وعوده الى معرة النعمان ، وانقطاعه عن الناس وتسمية نفسه رهين المحبسين — رحمه الله » وليس فى الفصل محاولة ما ، لكشف سر الرحلة .

على أنهم أجمعوا على أن عزلته الصارمة بدأت برجوعه من بغداد الى معرة النعمان ، لا أعرف أحدا منهم خالف على ذلك أو تردد فيه .

كما أجمعوا على أن (سقط الزند) هو ديوان شعره قبل الرحلة ، أو كما قال « ياقوت » : « فيه شعر قيل فى الدهر الأول، وأبياته ثلاثة آلاف بيت »

فاذا أخذنا (السقط) أثرا فنيا لأبى العلاء معبرا عن وجدانه فى الشطر الأول من حياته ، بدا لنا منه شخص غير الذى عرفناه فى (الفصول والغايات ، ولزوم ما لا يلزم ، ورسالة الغفران ، وملقى

السبيل ، ورسالة الملائكة) وغيرها من الآثار التى ثبت أنه أملاها فى الشطر الثانى من حياته ...

ومن مقابلة النصوص ، نستطيع أن نستبين أثر الرحلة البغدادية التى أحدثت ذلك التحول الحاسم فى حياته انسانا ، وفنه أديبا .

وبقدر ما لها من خطير الأثر نلتفت اليها ، ونحاول ما وسعنا الجهد أن نعرف كل ما حف بها من ظروف ، وأن نستخلص دلالة كل خبر مروى عنها ، ثم نلوذ آخر الأمر بأبى العلاء فيما لدينا من آثاره ، نسأله أن يفسر لنا بكلماته الصادقة سر هذه الرحلة ، وأن يقول الحق فيما ذكره مؤرخوه عنها وما أهملوه ..

* * *

ولا بد هنا من استطراد يسير ، نطل به على ذلك العالم الذى خرج اليه أبو العلاء ، ونعرف المناخ الذى تنفس فيه ، ونستخلص صورة عامة لبغداد فى عصره .

على أنا لا نستطيع أن نتحدث عن بغداد بمعزل عن الحياة العامة للدولة الاسلامية التى كانت بغداد عاصمة لها منذ بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ .

وأبو العلاء عاش ما بين عامى ٣٦٣ : ٤٤٩ هـ

وحين ندرس عصره فنقف به عند منتصف القرن الخامس لا تتجاوزه ، نرجع ببدايته الى حوالى منتصف القرن الرابع ، قبل مولد أبى العلاء ، تقديرا للمؤثرات القريبة التى شاركت فى توجيه

مجرى الأحداث وتحديد سير الحياة العامة ، الى حيث قدر لها فى زمان أبى العلاء .

والنصف الثانى من القرن الرابع ، قد شهد بدء انهيار الدويلات الفتية التى قامت فى أقطار الدولة الاسلامية ، وكان لها من القوة ما هيأ لها الظفر بالاستقلال الذاتى مع التبعية الرسمية لبغداد ، مركز الخلافة . كما كان لها دور واضح فى النهوض بالأقاليم ، فى ظل ما يشبه اليوم نظام الحكم المحلى .

وكان من الممكن ، لو أسعفت الظروف وقبلت سنة الحياة ، أن تقوى الدولة الاسلامية بقوة أقطارها ، لكن ضعف السلطان المركزى فى بغداد ، قد عجل بانهيار الدويلات القوية فى الأطراف، حيث كان الأمراء ملزمين بالحرص على الارتباط الاسمى بخليفة المسلمين ، احتفاظا بالمظهر الدينى لقيادة الجماهير المحكومة . فكانوا يلتمسون السند الشرعى لعروشهم ، بولاء جبرى للخلافة، تدعيما لسلطتهم الاقليمية وكسبا لطاعة المحكومين . فاذا مات الأمير وخلفته ذرية ضعاف ، ضاع التدبير وانهار الملك ، بعد أعوام قد تعد بالعشرات ، وليست بشىء فى أعمار الدول والشعوب .

فكل قائد يبلغ مبلغ القوة ، يستطيع أن يخرج على الأمير اذا اشترى تأييد الخليفة ، وكل مظهر من مظاهر الضعف فى ولاة الأقاليم ، يعالجه الطامحون من جندهم ومواليهم ، أو جيرانهم ومنافسيهم ، بضربة باترة يباركها خليفة المسلمين ...

وكل عرش يموت أميره ، تتطاول اليه الأعناق الشاعرة بفضل

قوة ، ولا على القوى أن يطأ الرءوس ويلغ فى الدماء ، فان بغداد تستطيع أن تسند فعلته بصك شرعى !

والشعوب بمعزل عن هذا ...

تتفرج على الصراع الدائر ولا فرق عندها بين غالب ومغلوب..

والقرن الخامس قد شهد ترنح امارات الأقاليم تحت ضربات التنافس والتقاطع ، ولطمات الدس والكيد ، والعدو واقف بالمرصاد يتربص بها الدوائر .

وقلب الدولة بغداد ، قد وهى وتصدع ، فهى فى عصر أبى العلاء مسرح للفتن والمغامرات ، وسوق للصفقات . وقد ضعف شأن الديلم القائمين بالأمر فيها ، وتسلط الأتراك فأكثروا فيها الفساد .

وجلجلت أصوات بنحل دخيلة وملل طارئة ، من مثنوية وحلولية وتناسخ وزندقة .. واحتدم الصراع الشعوبى والمذهبى ، واختلت الموازين وتاهت القيم .. وضريت الطبقية : فالثروة فى المجتمع المتصدع يستأثر بها أفراد معدودون ، والحقوق الاجتماعية لبشرية الناس غير مقررة ولا مؤداة ، بل يأكل الأقوياء الضعفاء ، ونجم عن سوء الأوضاع الاقتصادية وفساد الحالة السياسية ، أمراض نعرفها ، فى سوء النظرة للحياة وانتظار المباغتات ،وظهر سوء الخلقية الفردية فيما شاع من نفاق ودجل ونفعية وصولية ، كما ظهر سوء الخلقية العامة فى تحلل الوحدة والتداعى لعمل غير صالح ، وفى تصارع المذاهب والقوى دون أن يكون فى الأمر شىء من حق مقرر أو قيم ثابتة أو نظام مستقر

أو تقاليد راسخة ، وانما هو تنازع عار على السلطة والجاه والثراء ، بالقوة والاغتصاب أو بالمكر والحيلة ، أو بالنفاق والاستجداء . وصـــار الدين الى لون مذهبى تؤثر عليه الأعراض الطارئة ويتغير بتغير الأسر الحاكمة ، وما أسرع ما كانت تتغير وتتبدل .

والحق أن هذا الفساد لم يكن طارئا مستحدثا ، وانما كانت له بذور من قديم ، ظلت تعمل عملها فى الخفاء وتنخر فى أساس الدولة ، لكنها فى عصر أبى العلاء كانت قد نمت وترعرعت ، وآتت أكلها السام المشئوم .

والحق كذلك أن أبا العلاء لم يكن قبل رحلته الى بغداد ، بمعزل عن هذا كله .. فحلب من كبريات حواضر الشام ، والشام من قديم يقف بين التيارات المتدافعة : كان فى الجاهلية بين روم وفرس وعرب ، وفى العصر الأموى بين الحجاز والعراق ، وفى عصر أبى العلاء بين العباسيين والفاطميين ، والروم منهمـــا غير بعيد . وهو يتنفس فى هذا الجو ، وعلى بابه تصطخب الأمواج . ولقد ولد فى عنفوان المعركة سنة أقيمت الدعوة بالحرمين للمعز العبيدى الفاطمى ، وقطعت خطبة بنى العباس . يلتفت عن يمين فاذا العراق غير بعيد منه ، فيه خلافة عباسية سنية قائمة ، بايعها جمهور المسلمين ورسخها عمر طويل قارب ثلاثة قرون ، ويلتفت الى يسار ، فاذا مصر قريبة منه واصلة اليه ، قد استقرت فيها دولة فاطمية قوية فتية ، فى عنفوان نشاطها وضجيج دعوتها ، ومن حولها التف الناقمـــون والطامحون والمرتزقة المغامرون ، وخفت بها ايحاءات غيبية وهمسات سرية ...

وحلب كانت تابعة للعباسية من عصرها الأول ، ثم استقلت بها الحمدانية استقلالا ذاتيا مع التبعية الرسمية لبغداد ، وولد أبو العلاء ليشهد انطفاء الشعاع البارق ، وقد طويت الصفحات المجيدة التى كتبها « سيف الدولة الحمدانى » بجهاده وبطولته ، ووضعت مكانها صفحات سود مكتوبة بالتخاذل والهزيمة والتمزق ، واستجداء المعونة من الروم ، الذين أمضى سيف الدولة حياته يجاهدهم ويدفعهم عن ديار العرب والاسلام . انتهى ذلك الملك الشامخ الى « أبى الفضل » حفيد سيف الدولة ، عام ٣٨١هـ ، فسلبه منه « أبو نصر بن لؤلؤ » أحد موالى أبيه سعد الدولة ، ثم وثب على أبى نصر مولاه « فتح » فاعتصم فى قلعة حلب وكاتب الخليفة الفاطمى العلوى بمصر فولاه عليها وأعطاه معها صيدا وبيروت ، على حين سار ابن لؤلؤ الى انطاكية — وهى يومئذ للروم — فأقام معهم بها . وظلت حلب تنتقل من يد الى يد ، حتى غزاها صالح بن مرداس عام ٤١٤ هـ ، واستقر بها بضع سنوات الى أن غزاه جيش الظاهر العلوى فقتله عام ٤٢٠ ، وقتل معه ولده ، وأرسل رأسيهما الى مصر ! وفى عام ٤٢٢ هـ سار الروم الى حلب ومعهم حسان بن مفرج الطائى — وكان قد هرب اليهم اثر هزيمته من عسكر الظاهر العلوى ، على الأردن — وعلى رأس الأمير العربى علم فيه صليب ، ومن حوله جند الروم يدخلون حلب ظافرين منتقمين ليذيقوا أهلها أهوال الأسر وذل السباء .

ونجا أبو كامل شبل الدولة ، نصر بن صالح بن مرداس ، فسار الى حلب وحارب الروم عنها ، وظل يحكمها الى أن قتله

جيش المستنصر الفاطمى، فى حماة سنة ٤٢٩ هـ . وتتابعت جولات الصراع بين الولاة والحكام ، الى وفاة أبى العلاء ...

* * *

نقول : لم يكن أبو العلاء ، قبل رحلته الى بغداد ، بمعزل عن هذا الصراع الدائر هنا أو هناك .. وقد نقلنا فيما مر من حديثه ، قصائد حماسية من (سقط الزند) فى المعارك بين العرب والروم ، ونقلنا كذلك من فخرياته ، ما ينم عن ضيقه بفساد العصر واختلال القيم واضطراب الموازين ...

لكنه فيما يبدو ، كان مشغولا الى حد كبير بمعركة تحديه وأمانى طموحه ، بحيث يمكن القول بأن احساسه بفساد الحياة العامة ، كان يتوارى خلف احساسه بهمومه وأمانيه ، تاركا مع ذلك رواسب فى أعماقه ، لن تلبث أن تظهر فى تأملاته وأماليه ، بعد أن خلا الى نفسه فىعزلته ، وراح يرصد خلل العصر ويسجل انكاره على أمراض المجتمع .

ومهما يكن شعوره بما كان يجرى فى الشام ، فان المعترك فى الاقليم لا يقاس بالذى فى العاصمة صخبا واحتداما وعنفا ، وهو وان لم يفته لمح ما هناك على البعد ، فالذى لا شك فيه أن بغداد لم تفقد جاذبيتها وسحرها ، فهى عاصمة الدنيا ، وحاضرة العربية والاسلام ، وفيها أعلام العصر وأئمة الزمان ، وفيها حياة علمية وأدبية ، لم يحل دون نشاطها أنها لم تكن شعبية منظمة ؛ ولا قصد بها الى خدمة العلم ونشر الثقافة ، بقدر ما قصد بها الى استكمال مظهرية العظمة وأبهة السلطان ...

بل لعل هذا الوضع ، كان من أسباب نشـــاطها ودواعى رواجها : فقد جذب الى العاصمة حشدا كاثرا من الكتاب والعلماء والشعراء ، وطلاب الشهرة والجاه . وهناك وصل منهم من وصل الى منصب الوزارة ، ووقف آخرون على أبواب السادة الحكام والأمراء يستجدون فضلات موائدهم ، يحدوهم من مطلع القرن الرابع ، صوت زعيمهم المتنبى :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله

فانى أغنى منــذ حــين وتشــرب !

والى هذا المعترك الصاخب ، مضى أبو العلاء ليجد نفسه هناك فى دوامة الموج الهادر !

وفى ذلك المناخ تنفس وأقام يختبر طاقته ويكتشف نفسه ، الى أن انتهى الى عزلة وانفراد ...

حديث الذهاب

فيا برق ليس الكرخ دارى وانما
رمانى اليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة
تغيث بها ظمآن ليس بسال

(سقط الزند)

متى سافر الى بغداد ؟

ولماذا ألقى بنفسه — وهو الضرير المستطيع بغيره — فى خضمها المائج الهادر ؟

وماذا لقى فيها من صدمة زلزلت كيانه ، ودفعت به الى اصدار القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان ؟

أما متى سافر ، فمن الاخباريين من قالوا سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، كابن الجوزى والقفطى وأبى الفداء والذهبى .

ومنهم من قالوا : سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، كابن الأنبارى وياقوت والصفدى وابن حجر .

وهو خلاف يسير ، يمكن أن يفسره عندنا قول ابن العديم انه « رحل الى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، ودخلها سنة

تسع وتسعين » فيكون الأولون قد جددوا الرحلة بوقت بدئها من المعرة ، وحددها الآخرون بعام وصوله الى بغداد .

ووهم « ابن خلكان » فجعلها فى (الوفيات) رحلتين ، فى عامى ٣٩٨ ، ٣٩٩ هـ ، وهو مالم يقله أحد سواه ، وليس فى آثار أبى العلاء حديث الا عن رحلة واحدة لم تتكرر .

والذى يعنينا على كل حال ، هو أن أبا العلاء سافر الى بغداد ناضج الشباب فتىّ الرجولة ، فى نحو السادسة والثلاثين من عمره ...

ولم سافر ؟

قيل « انه أوذى فى وقف له ، فرحل الى بغداد متظلما من أمير حلب » وممن ذكر ذلك القفطى فى (انباه الرواة) والذهبى فى (تاريخ الاسلام)

لكنهم أمسكوا بعد ذلك ، فلم يأتوا بأى خبر يشير الى أنه تحدث فى أمر هذا الوقف ، أثناء مقامه الذى طال ببغداد وامتد الى سنة ٤٠٠ هـ .

كما أن أبا العلاء نفسه ، لم يشر اطلاقا الى ذلك الوقف ، فيما أطال من حديث عن رحلته التى نفى أن تكون متعلقة بمال ..

فهل كانت رحلته ، التماسا لسعة فى الرزق ، واستكثارا من النشب ؟

يبدو أنه كان — لدى بعض القوم — مظنة أن يفعل . شأنه فى ذلك شأن الكثرة من العلماء والأدباء الذين رحلوا الى بغداد .

وذلك ما نفاه مؤرخه « ابن العديم » بقوله : « ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفد » مستشهدا لذلك بقول أبى العلاء :

أأخواننا بين الفرات وجلق
يدَ الله لا خبرتكم بمحال

أنبئكم أنى على العهد سالم
ووجهىَ لما يبتذل بسؤال

وأنى تيممت العراق لغير ما
تيممه غيلان عند بلال

فأصبحت محسودا بفضلى وحده
على بعد أنصارى وقلة مالى

والأبيات من (سقط الزند)

وعاد أبو العلاء ، فنفى نفيا قاطعا أن يكون سافر استكثارا من المال ، فى رسالته التى بعث بها الى أهل المعرة عند خروجه من بغداد وقال فيها :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ...

« .. والله يحسن جزاء البغداديين ، فلقد وصفونى بما لا أستحق .. وعرضوا علىّ أموالهم عرض الجد ، فوجدونى غير جذل بالصفات ولا هشٍّ الى معروف الأقوام » .

وأملى فى رسالته الى خاله أبى القاسم على بن سبيكة ، مشيرا الى محاولة البغداديين قضاء حاجاته المادية ، حرصا على بقائه بينهم :

« وكلما عرضوا قضاء حاجة أعرضتُ عن تكليف المشقة ، لأنى أعتقد حكمة « زهير » فى قوله :

ومن لا يزال يستحمل الناس نفسه
ولا يعفها يوما من الذل يسأم

« وأمرونى لرغبتهم فى صقبى منهم — أى جوارى — بأمور تنهى عنها القناعة وتكف دونها العادة :

على حين أن ذكيت وابيض مفرقى
أأسام الذى أعييت اذ أنا أمرد

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجتْ يوما وضاق بها الصدر

وأبو العلاء عندنا المصدق ، وعبارته تشهد بأنه لم يكن يتكلف رفض العطاء والمنة تجملا ، وانما هى عادة فيه وطبيعة !

فلعله اذن سافر يستزيد من العلم ، ويستكثر من عدد شيوخه على مألوف عصره ، حيث كان العالم يعتز بكثرة من لقى من الشيوخ ؟

ربما خطر ذلك بالبال ، لكن أبا العلاء ينفيه كذلك نفيا قاطعا فى رسالتيه اللتين أملاهما عند منصرفه من العراق ، فقال فى احداهما لخاله أبى القاسم :

« ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسى باجتداء علم من عراقى ولا شامى .. وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير سرب ، لم أرق منه قطرة فى طلب أدب ولا مال » .

وقال فى الأخرى لأهل المعرة :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال » .

ففيم اذن كان السفر ؟

أبو العلاء يصرح فى رسالته الى خاله ، بأن الذى أقدمه الى تلك البلاد « مكان دار الكتب بها » كما يصرح فى رسالته الى أهل بلده ، أنه انما آثر « الاقامة بدار العلم » .

وليس قوله عندنا بمتهم ، وهم يذكرون فى تاريخه أنه لما وصل الى بغداد ، طلب أن تعرض عليه الكتب التى فى خزائنها .

لكن بقى أن نسأل : اذا كانت هذه هى الغاية من الرحلة ، ففيم كان ذلك التحول الخطير فى حياته بانصرافه من بغداد ، وقد حقق غايته من السفر اليها ، وعرضت عليه كل الكتب التى طلبها هناك ؟ واذا صح ما ذكره ابن فضل الله العمرى فى(المسالك) من أنه لما أجيب الى طلبه « جعل لا يقرأ عليه كتاب الا حفظ جميع ما يقرأ عليه » أو ما ذكره القفطى فى (الانباه) من أنه « حضر خزانة الكتب التى بيد عبد السلام البصرى ، وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب شيئا لم يره — من قبل — بدور العلم فى طرابلس ، سوى ديوان تيم اللات ، فاستعاره ، وخرج من بغداد وقد سها عن اعادته ، ولم يذكره حتى صار بالمعرة ، فأعاده اليه » .

أقول : اذا صحت هذه الأخبار — وفى النصوص العلائية ما يؤيدها — فان الرحلة اذن تكون قد حققت غايتها ونجحت كل

النجاح ، بحيث يعوزنا ، مع هذا النجاح ، أن نفهم سر قراره بالعزلة والحرمان ، وهو فى عز رجولته وعنفوان طموحه !

ولقد لقينا أبا العلاء فى (سقط الزند) قبل رحلته ، وسمعناه يجلجل بقصائده المسرفة فى التحدى والمكابرة ، المعبرة عن طموح لا يعرف حدا يقف عنده ، وسمعنا معها قول المصيصى الشاعر : « لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لى وأحسن بى ، اذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء » .

ومع الأيام والسنين ، نضج وعيه لذاته واكتشافه لنفسه وادراكه لمأساته ، لكنه ظل يقاوم دواعى القنوط ، ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما أراد من تحدى الأيام « ومعاندة القدر » حتى بدا له آخر الأمر أن يحسم معركته بالسفر الى بغداد ليبلو طاقته على المضى فى المقاومة .

وأغلب الظن أنه صفى حسابه مع طموحه قبل الرحلة ، فلم يستبق منه الا الأمل فى المجد العلمى والجاه الأدبى . وكانت قد ذاعت له منذ صباه شهرة اقليمية مبكرة ، ان لم يشهد بها ما مر بك من أخبار شبابه بالمعرة ، فان فى (سقط الزند) شواهد ناطقة بما أتيح له من تفوق على منافسيه ، وشعوره بأنه فاتهم جميعا بمواهبه ، فما عادوا قادرين على أن يبلغوا شأوه الا أن تختل الموازين وتضل المقاييس . وقد بقى ليسجل هذه الشهرة الاقليمية،

أن تعترف به بغداد ، وقد كان اعترافها مطمح كل عالم وأديب يجد فى مواهبه أو علمه ما يؤهــله للظفر بشهادة من حاضرة العربية والاسلام .

هكذا شد رحاله الى مدينة السلام ، يحدوه رجاء كبير فى أن يفر من الهزيمة التى أحس بوادرها فى أعماق نفسه ، وأمل عزيز فى أن يفرض وجوده على الدنيا والناس .

وتزود للرحلة بأسلحته التى يملكها : ذكاء شبه أسطورى ، وفقه عميق لعلوم العربية والاسلام ، وموهبة أدبية أصيلة مبدعة .

تلك كانت أسلحته فى الجولة الحاسمة من معركته مع نفسه ومع الدنيا ..

* * *

طال عليه الطريق وأجهده السرى وهو يتعجل الوصول الى بغداد ، نافذ الصبر ضيق الصدر بكلال ناقته ، ولم يذكر مؤرخوه من حديث الذهاب ، الا خبرا جىء به فى معــرض الكلام عن ذاكرته العجيبة : قيل انه مر وهو راكب بشجرة فى طريقه الى بغداد ، فقال له من يقوده : طأطىء رأسك ، ففعل . حتى اذا آب من الرحلة بعد عام وبعض عام ، ومر بذلك الموضع ، طأطأ رأسه من تلقاء نفسه ! فسئل فى ذلك فأجاب : ها هنا شجرة . قالوا : ما هاهنا شىء ! ثم فحصوا الموضع فاذا أصل شجرة مجتثة .

طأطىء رأسك !

ما أشقها من كلمة على الحس المرهف لهذا الضرير الذى يخرج لأول مرة الى خضم العالم الواسع ، وقد كان من قبل ألف

الحركة فى حدود عالمه الصغير الضيق ما بين المعرة وحلب ، مهتديا بحسه الذكى وبصيرته الواعية ، ومترنما بمثل قوله فى الدهر الأول :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم
وأسرى ولو أن الظلام جحافل !

* * *

غير أن شح الأخبار عن رحلته ، يعوضه سخاء أبى العلاء فى تسجيل كل خطواته وخواطره . وبين أيدينا فى (سقط الزند) قصيدة مطولة ، أرسلها الى أبى حامد الاسفرايينى — من أعلام بغداد — يسأله أن يكون دليله فى متاهة العاصـمة . أعنى قصيدته العينية التى مطلعها :

لا وضع للرحل الا بعد ايضـاع
فكيف شاهدت امضائى وازماعى
يا ناق جِدى فقد أفنت أناتك لى
صبرى وعمرى وأحلامى وأنساعى[1]

ومنها نعلم أنه أخذ طريق الأنبار والقادسية ، ثم عبر بادية الشام نحو بغداد ، كما نعلم ما تجشمه من مشاق السفر ووحشته فى المهمه القفر :

سارت فزارت بنا الأنبـار سـالمة
تزجى وتدفـع فى مـوج ودُفّاع

(١) الأحلاس جمع حلس ، وهو كساء يطرح على ظهـر البعير والأنساع جمع نسع ، وهو سير تشد به الرحال .

والقادســـية أدّتهــا الى نفــر
طافوا بهــا فأناخــوها بجعجــاع

ورب ظُهــر وصلناها على عجــل
بعصرها ، فى بعيــد الورد لماع[1]

بضربتين : لطهر الوجــه واحــدة
وللذراعين أخرى ذات اسراع[2]

وكــم قصرنا صــلاة غير نافلــة
فى مهمه كصلاة الكسف شعشاع

وما جهــرنا ، ولم يصــــدح مؤذننا
من خوف كل طويل الرمح خداع[3]

الى أن قال :

وبالعــراق رجــال قربهــم شرف
هاجرتُ فى حبِّهم رهطى وأشياعى

اسمع أبا حامــد ، فتيا قصدت بها
من زائــر ، لجميــل الود مبتــاع

مــؤدب النفس أكّال عــلى سغب
لحــم النــوائب شراب بأنقــاع

(١ ، ٢) يعنى الجمع بين صــلاتى الظهــر والعصر ، فى وقت واحد ، ترخصا ، والورد بعيد يلمع كالسراب ، بضربتين على الوجه واليدين للتيمم .

(٣) يشير الى قطاع الطرق فى البادية المقفرة .

أرضى وأنصف الا أننى ربما
أربيت ، غيرَ مجيز خرق اجماع [1]

وذاك أنىَ أعطى الوسق منتحيا
من المودة ، معطى الود بالصاع [2]

ولا أثقل فى جاه ولا نشب
ولو غدوت أخا عدم وادقاع

من قال : صادقٌ لئام الناس قلت له
قولَ ابنِ أسلت : قدأبلغتأسماعى [3]

* * *

مطيتى فى مكان لست آمنة
على المطايا ، وسرحان له راع

فارفع بكفى فانى طائش قدمى
وامدد بضبعى فانى ضيق باعى

وما يكن فلك الحمد الجميل به
وان أضيعت فانى شاكر داع

* * *

(١) يعنى : أنصف برعاية حقوق المودة ، غير انى ربما أربيت وزدت فى المودة ، غير مجيز خرق الاجماع على تحريم الربا . وهو محرم بالنص والاجماع .

(٢) الوسق : ستون صاعا . يفسر هنا معاملته بالربا ، بأن من أعطاه صاعا من المودة ، ضاعفه له فى الجزاء ستين صاعا !

(٣) يشير الى قول أبى قيس بن الأسلت :

قالت ، ولم تقصد القيل الخنا
مهلا ، لقد أبلغت أسماعى

وحدد مؤرخوه ليوم وصوله الى بغداد ، ظرفا كئيبا لطم قلبه الحساس لطمة قاسية . وأنقل هنا من وصفهم لمشهد وصوله :

« واتفق يوم وصوله الى بغداد موت الشريف الطاهر والد الشريفين الرضى المرتضى . فدخل أبو العلاء الى عزائه والناس مجتمعون والمجلس غاص بأهله . فتخطى بعض الناس فقال له ، ولم يعرفه : الى أين يا كلب ؟ قال : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ! ثم جلس فى أخريات المجلس ، الى أن قام الشعراء وأنشدوا مراثيهم ، فوقف أبو العلاء وأنشد — مرتجلا — قصيدته فى رثاء الفقيد :

* أودى فليت الحادثات كفافِ *

فلما سمعه ولداه ، قاما اليه ورفعا مجلسه وقالا له : لعلك أبو العلاء المعرى ؟ قال : نعم . فأكرماه واحترماه » .

مأتم يستقبله يوم وصوله !

والكلب ، أول لقب تقدمه اليه بغداد ؟

ما أعجبه من اتفاق ! لكأنما وقفت الدنيا مترصدة تنتظر مقدم ذلك المغرور ، لترده الى موضعه على الأرض ، بعد ما طال مزعمه أن النجم دونه !

وأوى الى فراش غربته محزونا يجتر همه ويلعق جرحه ، ويرنو عبر الظلام الدامس الى برق لاح له من ديار الشام فهاج مواجعه .

هنا أيضا ، يسجل أبو العلاء أدق خواطره ، فى لاميته الرائعة التى أنكر فيها على الابل أن تعذبه بتحنانها ، رغم ستره لوجوهها

كيلا تلمح البرق المتعالى ! ولولا ما بينه وبينها من تعاطف ، لأمر صاحبه فذبحها ، كى ينجو مما تثير فيه من لواعج الحنين وأشجان الغربة ، وهيهات هيهات !

طربن لضوء البارق المتعالى
ببغداد وهنا ، ما لهن ومالى ؟
سمت نحوه الأبصار حتى كأنها
بناريه ، من هنَّا وثَم ، صوالى
اذا طال عنها سرها لو رءوسها
تمد اليه فى رءوس عوالى
تمنت « قويقا » والصراة حيالها
تراب لها ، من أينق وجمال [1]
اذا لاح ايماض سترتُ وجوهها
كأنىَ عمرو والمطىَ سعالى [2]
وكم هم نِضو أن يطير مع الصبا
الى الشام ، لولا حبسه بعقال
ولولا حفاظى قلت للمرء صاحبى
بسيفك قيّدها فلست أبالى

---

(١) قويق : نهر بحلب . والصراة : نهر ببغداد .

(٢) من أساطير العرب ما زعموا أن عمرو بن يربوع بن حنظله ، تزوج السعلاة — أنثى الغول — فقيل له : انك ستراها خير امرأة ما لم تر برقا فانها اذا رأت البرق لم تلبث مكانها . فكان عمرو اذا لاح برق سترها عنه ، الى أن غفل ليلة ولاح البرق ، فاندفعت لا تلوى على زوج أو ولد ، وقالت :

أمسك بنيك عمرو انى آبق   برق على أرض السعالى آلق !

أأبغى لها شرا ولم أر مثلهـــــا
سـفائر ليــل أو سـفائن آل

لقـد زارنى طيف الخيـال فهاجنى
فهـل زار هذى الابلَ طيفُ خيال

لعـل كراها قد أراهـا جـذابها
ذوائب طلح بالعقيق وضـــال

ومسرحها فى ظل أحـــوى كأنها
اذا أظهرت فيـه ، ذوات حجـال

حلمنا بأسنان الكهول ، وهـــذه
شـوارف تزهاهـا حـلوم افال

ترى العـــود منها باكيـا فكأنه
فصيل ، حماه الخلفَ ربٌّ عيال [1]

ســـتنسى مياها بالفـلاة نميرة
كنســيانها وردا بعـين اثال [2]

وان ذهلتْ عما أجن صـــدورها
فقد ألهبت وجـدا صـدور رجال

ولو وضعت فى دجلة الهام لم تفق
من الجـرع الا والقلوب خـوال

---

(١) العود : المسن من الابل . والخلف : الضرع
(٢) عين اثال : عين تردها الوحوش . يعنى نسيان الابل عهد توحشها

تلــون زبورا فى الحنــين منزّلا
عليهن ، فيــه الصبرُ غير حــلال

بكى سامرى الجفن ان لامس الكرى
له هـــدب جفن مســه بسجــال

تهــادانىَ الأرواح حتى تحطنى
عــلى يد ريــح بالفــرات شمال

فيابرق ليس الكرخ دارى وانما
رمانى اليه الدهــر منــذ ليــال

فهل فيك من برق المعــرة قطــرة
تغيــث بها ظمــآن ليس بســال

ألاخوانــــا بين الفـــرات وجلق
يدَ الله ، لا خبَّرتكم بمحـــال

أنبئكــم أنى على العهــد ســالم
ووجهى لمــا يبتـــذل بســؤال

وأنى تيممــت العـــراق لغير مــا
تيممـــــه غيــلان عنــد بلال [1]

فأصبحتُ محسودا بفضلىَ وحده
على بعــد أنصــارى وقلة مــالى

ندمت على أرض العواصم بعــدما
غدوت بها فى السؤم غير مغالى [2]

(١) غيلان : ذو الرمة ، الشــاعر الأموى المشــهور . وبلال : ابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، ولى الكوفة، واليه قصد غيلان .
(٢) العواصم : حصون من حلب الى حماة ، منها المعرة .

أروح فلا أخشى المنـــايا وأتقى
تدنس عرض أو ذميـم فعـــال
اذا ما حبـال من خليـل تصرمت
علقت بخـلٍ غـــيره بحبـــال
ولو أننى فى هالة البـــدر قاعـد
لما هــاب يومى رفعتى وجــلالى

فى النفس اذن بقية من طموح واعتداد ، ما تزال تعينه على محنته ، وتمده بطاقة من الاحتمال لما أحس من هم وكرب ، بعد أن رماه الدهر الى الكرخ « منذ ليال » ! وليس الكرخ داره كما قال ..

فليطو اذن حنينه الطاغى ، وليطو معــه ما أحس من وقع لفظ « الكلب » على وجدانه المرهف ، وهو على كل حال لم يلق اللفظ الجارح صامتا ، بل أخرج من جعبته سلاحه : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ..

وأرضاه أن سمع ما اطمأن به الى أن شهرته قد سبقته الى بغداد ، اذ سأله الشريفان : لعلك أبو العلاء المعرى ..

أجل ، انه هو .. الذى يعرف للكلب سبعين اسما ، والذى يرتجل مرثية فى الشريف الطاهر ، فيجذب الأسماع والقلوب ، ويحظى بالاكبار والاحترام !

فى خضم العاصمة

فيادارها بالحــــزن ان مــــزارها
قريب ، ولكن دون ذلك أهــوال
تمنيت أن الخمــــر حلت لنشــوة
تجهلنى كيف اطمأنت بى الحــــال
فأذهــل أنى بالعراق على شــفى
زرى الأمانى ، لا أنيس ولا مــال

(سقط الزند)

فى محلة (القطيعة) على شط دجلة كان منزله ...

ومن ماله الذى حمله معه من المعرة ، كان يدبر ضرورات عيشه . واليه توافد الناس فى أول الأمر ، يختبرونه .

فلم يكن البغداديون بحيث يكتفون بشهادة اقليمية يحملها أبو العلاء معه من خارج العاصمة أو تسبقه اليها ، فالذى يبهر الناس فى المعرة أو حلب ، قد يكون فى العاصمة الكبرى غــير لافت ولا مثير ، ولابد من أن يكون لأهل بغداد الكلمة الحاسمة فيما اشتهر من واسع علمه وعجيب حفظه وذكائه .

وفى الخبر أنهم أعدوا له امتحانا ، أشار اليه غير واحد من

المؤرخين ، ومنهم « ابن فضل الله العمرى » الذى قال فى (مسالك الأبصـــار) :

« ولما دخل بغداد أرادوا امتحانه ، فأحضروا دستور الخراج الذى فى الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ما فيه مياومة وهو يسمع الى أن فرغوا ، فابتـــدأ أبو العـــلاء وسرد عليهـــم كل ما أوردوه له » .

وهكذا اجتاز الامتحان بنجاح .

وأقر له البغداديون بأنه أعجوبة الزمان فى حفظه وعلمه باللغة، كما شهدوا له شاعرا أصيلا مبدعا ، بقراءتهم عليه ديوانه (سقط الزند) بعد وصوله الى بغداد .

وبدا له أن المعركة توشك أن تنتهى بما خامره من رجاء فى الاقامة حيث أراد ببغداد . مرفوع المكانة كريم الموضع .

وكانت فعلا على وشك الانتهاء الى ذروتها الحاسمة ، لكن ليس على الوجه الذى توهمه أو رجاه :

دخل خزائن العلم وعرض عليه كل ما فيها من كتب فوعاها حفظا . أو كما قالوا ، لم يلق فيها ما يحمله معه الا ديوانا واحدا استعاره من بيت الحكمة ، وهو ديوان شعر قبيلته تيم اللات ، ولبث الى ما بعد سنين طوال ، يذكر جولته بين الوراقين فى مدينة السلام ، ويسترجع ذكرياته هناك ، فمما أملاه فى (رسالة الغفران) بعد ربع قرن من رحلته الى بغداد ..

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافيــة « عدى بن زيد » :

بكر العــاذلات فى غلس الصــب
ح يقــولون لى أما تســـتفيق
ودعا بالصبوح فجــرا فجـــاءت
قينــــــــة فى يمينهـــــا ابريق

وزعم الوراق أن « ابن حاجب النعمان » سأل عن هذه القصيدة وطلبت فى ديوان « عدى » فلم توجد . ثم سمعتُ بعد ذلك رجلا من أهالى أستراباذ يقرأ هذه القافية فى ديوان العبادى — عدى — ولم تكن فى النسخة التى فى دار العلم » .

وأحب أبو العلاء بغداد ، لما شغفه من خزائن الكتب فيها ، فضلا عن نشاط مجالسها العلمية حيث يتاح له التألق والظهور .

وظن أن « الزمان يسعفه على المقام بها » كما قال ...
لكن ظنه خاب !

واذا كان لم يلق سلاحه يوم دخل بغداد فاستقبله مأتم الشريف الطاهر وصكت سمعه الكلمة الجارحة ، فان الأيام كانت تدخر له ما هو أقسى وأمر :

ذكر ابن الأنبارى فى (نزهة الألبا) وغيره ، أن أبا العلاء قصد مجلس امام النحو ببغداد : أبى الحسن على بن عيسى الربعى ، فلما استئذن له قال أبو الحسن : ليصعد الاصطبل . — وهو الأعمى بلغة أهل الشام فيما ذكر ياقوت فى (معجمه) والصفدى فى (نكت الهميان) .

وانصرف « أبو العلاء » من فوره لم يلق أبا الحسن ، وفى

قلبه أثر السهم الجارح جاءه هذه المرة من عالم امام ، وليس من رجل من العامة — يجهله — فى مأتم الشريف .

وتركها تفوت ، وما يزال فى طاقته بقية احتمال .

ثم كانت الطعنة النافذة ، من يد الشريف المرتضى نفسه ، ذاك الذى أكرم أبا العلاء ورفع موضعه ، عندما أنشد مرثيته فى مأتم أبيه الشريف الطاهر .

يذكرون أن أبا العلاء « كان يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى وجعل يتتبع عيوبه . فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبى من الشعر الا قصيدته :

* لك يا منازل فى القلوب منازل *

لكفاه فضلا . فغضب السيد المرتضى وأمر فسُحب برجله وأخرج مهانا من مجلسه . وقال لمن يحضرونه : أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ؟ فان للمتنبى ما هو أجود منها لم يذكره . قالوا : النقيب السيد أعرف . فقال : أراد قوله :

واذا أتتـــــك مذمتى من ناقص
فهى الشـــــهادة لى بأنى كامل

« ولما رجع الى المعرة لزم بيته فلم يخرج منه ، وسمى نفسه رهين المحبسين » .

أتفوت هذه أيضا ؟

أن يكون تحامل على نفسه ولم يخرج فورا من بغداد اثر طرده من مجلس نقيب الأشراف ، مهانا مسحوبا من رجله ، فلا بد أنه كان يشق على نفسه بأكثر مما فى طاقتها أن تتحمله .

ولكن الذى لا ريب فيه عندنا ، أنه اذا كان لم ينسحب من المعركة فى الظاهر ، فقد انسحب منها نفسيا وبدأ يحس التعب والكلال ، ويصغى بملء وجدانه الجريح ، الى قصيدة أرسلها اليه من المعرة ، أخوه « أبو الهيثم عبد الواحد » واستعطفه على من خلف بالشام ، ناقما على بغداد أن اجتذبت ببريقها الخادع ، ذلك الماجد الأبى الكريم . وهى قصيدة مطولة ، نقل منها ابن العديم فى (الانصاف) أربعة وثلاثين بيتا ، وفيها يقول أبو الهيثم:

بغداد لا سُقيت ربوعك ديمة
وغدت رياضك حنظلا ومرارا

أنت العروس يروق ظاهر أمرها
وتكون شينا فى اليقين وعارا

أضرمتِ قلبى باجتذابك ماجدا
كالسيف أعجب رونقا وغرارا

منيته محضا فلما شفه
ظمأ أتاك به ، سقيت سمارا

وجذبته فأتاك يعتسف الردى
ويخوض منه لجة وغمارا

شغفا بدار العلم فيك ، وقلبه
ما زال ربعا للعلوم ودارا

ما زدتِ عما عنده ، فسقاك من
رفع السماء نقيصة وعثارا

أأبا العـــلاء ، نداءَ عبد أدركت
منـــه النـــوى لما نأت بك ثارا
حاشاك أن تبدى الجفـــاء لخــلة
وتعيــد أقران الوفــاء قصـــارا
أدرك بادراك المعـــرة مهجــــة
تفنى عليـك مخـــافة وحـــذارا
بلغت بك الهمم المــراد فأيأســت
منــك الحسود ولم تنط بك عــارا
فأقمت فى الزوراء ثم غـــدوت فى
أفق المفـــاخر كوكبـا ســـيارا
فاجنح على مرضــاة ربك طالبـــا
منـــه الجـزاء وجـانِب الاصرارا
واسلم لقومك اذ غدوت لمجــدهم
تاجـا تشرف فضــــله وســـوارا

فهل كانت أنباء أبى العلاء فى غربته ، وما يلقى من خبث الناس وشرهم ، تصل الى أهله بالمعرة فتحـــزنهم وتكربهم ؟ أو كان أبو الهيثم — وهو من أقرب الأهل الى أخيه وأعرفهم بخلقـــه وطبعه — يتمثل حال الغريب النازح ، فيشفق عليه من المقام فى بلد تسرح فيه ثعالب الانس وذئاب البشر ؟

كلا الفرضين محتمل ...

وأقام بعد ذلك ما أقام فى بغداد ، وهو يعيد النظر فيما تزود به لبغداد من عدة :

الأدب ؟

لا جدوى منه الا اذا عزف للسلطان وتمرغ على أعتاب السادة ذوى الجاه والنفوذ . وقد أكرمه نقيب الأشراف حين وقف فى مأتم والده يعدد مناقبه ويذكر كريم سجاياه ، ثم أهانه وأذله ، حين جهر برأى له فى شاعر ، يخالف رأى السيد النقيب الشريف !

العلم ؟

ان مجتمع العاصمة فى عصره ، يقدر من يعرف كيف يأتى بالثعلب أو الذئب من ذيله ، أكثر من تقديره لمن يعرف للكلب سبعين اسما أو ثمانين ...

العفة والاباء والصدق ؟

يا لها من بضاعة نافقة ، فى سوق يروج فيها النفاق والزيف ، فهى لا تسمح بكلمة حرة تقال فى مثل مجلس الشريف المرتضى ، مخالفة لرأيه .. بل تلفظها وترفضها ، لتخلى المكان لقول شهود المجلس ، وهم خبراء بالسوق والبضاعة :

« السيد النقيب أعرف » !

وأجمع أمره على العزلة وهو ما يزال فى خضم المعترك ، وقد عرف أن أسلحته مفلولة ، تغلبها أسلحة أخرى لا يملكها ، من مكر الحيلة ونعومة المداهنة ولؤم النفاق !

وأحس ألا مكان له فى دنيا الناس ، وقد أعوزه عمى البصيرة

وبلادة الشعور والضمير ، ومرونة فى الخلق والطبع يتلون بها فى موكب المنافقين والمهرجين ..

وبدأت رحلة الاياب ، وهو فى بغداد مقيم ...

بل انه ودعها ، وداع محزون لفراقها ، فى قصيدة أنشدها وهو ببغداد ، تهنئة بمولود لصديقه أبى القاسم بن القاضى التنوخى ، فقال :

ولولا ما تكلفنا الليالى
لطال القول واتصل الروى

اذا نأت العراق بنا المطايا
فلا كنا ولا كان المطى

على الدنيا السلام فما حياة
اذا فارقتكم الا نعِى

وكذلك قال ، وهو ببغداد ، من قصيدة الى أبى على النهاوندى ، محمد بن محمد بن فورجة :

كفى بشحوب أوجُهنا دليلا
على ازماعنا عنك الرحيلا

أبت صنفا النواعب من نياق
وطير ، أن نقيم وأن نقيلا

تأملنا الزمان فما وجدنا
الى طيب الحياة به سبيلا

يفجعنا ابن دأية بابن أنس
نفارقه ، فلا تَبِع الحمولا

كلفنا بالعراق ونحن شرخ
فلم نلمم به الا كهولا
وردنا ماء دجلة خير ماء
وزرنا أشرف الشجر النخيلا
وأبنا بالغليل وما اشتفينا
وغاية كل شيء أن يزولا

واستسلم للهزيمة نفسيا قبل انسحابه من بغداد ، حين أدرك بملء يقينه أن المكابرة ضالة ، وأن الأمل فى النصر سراب ، وأن النضال عقيم ..

وانه لفى العاصمة غريب غريب ، ظامىء والورد قريب ، يتمنى لو أن الخمر حلت لنشوة تذهله عما يكابد من وحدة وضيق :

فيادارها بالحزن ان مزارها
قريب ولكن دون ذلك أهوال
اذا نحن أهللنا بنؤيك ساءنا
فهلا بوجه المالكية اهلال
تسىء بنا يقظى فأما اذا سرت
رقادا ، فاحسان الينا واجمال
وغنت لنا فى دار سابور قينة
من الورق مطراب الأصائل ميهال
رأت زهرا غضا فهاجت بمزهر
مثانيه أحشاء لطفن وأوصال

فقلتُ : تغنى كيف شئت فانمـــا
غناؤك عنــدى ياحمامــة اعــوال
تمنيــت أن الخمر حلــت لنشــوة
تجهلنى كيف أطمأنت بى الحـــال
فأذهل أنى بالعــراق على شــفى
زرىّ الأمــانى لا أنيس ولا مــال
مقـــل من الأهـــلين يسر وأسرة
كفى حزنا بَيْنٌ مُشِتٌ واقــلال
متى سألت بغــداد عنى وأهلهـــا
فانى عن أهــل العواصـــم سآل
اذا جنّ ليـــلى جـّـن لبى وزائد
خفــوق فؤادى كلما خفــق الآل
ومــــاء بلادى كان أنجــع مشربا
ولو أن مــاء الكرخ صــهباء جريال
فيا وطــنى ان فاتنى بك ســـابق
من الدهر فلينعــم لساكنك البــال
فإن أســتطع فى الحشر آتك زائرا
وهيهات ، لى يوم القيامة أشــغال

***

حديث الإياب

« وهو أمر سَرِى عليه بليل .. ليس بنتيج الساعة ، ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذى الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل » .

(من رسالته الى أهل المعرة)

على هذا النحو كان انسحابه النفسى من بغداد قبل أن يحمل شبابه المدبر المقهور ورجاءه الخائب الضائع ، ليعود من حيث جاء الى محبسه بمعرة النعمان .

ولم تكن هناك حاجة قط ، الى مطاردة من فقهاء بغداد تخرجه منها طريدا منهزما . أعنى المطاردة التى أشار اليها « ابن كثير » فى (البداية والنهاية) والبدر العينى فى (عقد الجمان) . وموجز حكايتها أن فقهاء بغداد تعرضوا لقوله فى اليد ديتها خمسمائة دينار ذهبا ، وتقطع فى السرقة ولو كان المسروق ربع دينار :

بد بخمس مئين عسجد وُدِيت
ما بالهـا قطعت فى ربع دينـار

تناقض ما لنـا الا السكوت له
وأن نعـوذ بمولانا من النـار

« ولما عزموا على أخذه بها ، خرج من بغداد طريدا منهزما ، ورجع الى بلده ولزم منزله فكان لا يخرج منه » .

وابن كثير توفى سنة ٧٧٤ هـ ، والعينى توفى سنة ٨٥٥ هـ ، والخبر مرسل بلا اسناد ، فلسنا نعرف كيف وصل الى القرنين الثامن والتاسع ، ولم يذكره معاصرو أبى العلاء من المؤرخين والاخباريين ، كالثعالبى والخطيب البغـدادى والباخرزى وابن الانبارى . وجاء «الصفدى» بالبيتين — وهما من اللزوميات — دون أن يحدد للحادثة زمانا أو مكانا . على حين ساق « ابن حجر » المعاصر للعينى ، الخبر على صـورة أخرى لا صلة لها بالرحلة البغدادية .

ونسأل أبا العلاء عن هذه المطاردة من الفقهاء ، فلا نجد لديه اشارة اليها أو كلمة عنها ، وانما الحديث عنده عن مطاردة أخرى من نفسه ، ألحت عليه فى الاياب ، وحاول عبثا أن يطاولهـا أو يتجاهلها ، ثم لم يجد مفرا من الاستسلام حين لم تعد تجدى مطاولة أو عناد .

وأملى من رسالته الى أهل المعرة ، عند انصرافه من العراق :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب الى السكن المقيم بالمعرة شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبد الله بن سليمان ، خص به من عرفه وداناه ، سلم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعثها ولا آلمها .

« أما الآن فهذه مناجاتى اياهم منصرفى عن العراق ، مجتمع أهل الجدال وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت ،

وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ما أصنعه فى أيام الحياة ، عزلة تجعلنى من الناس كبارح الأروى من سانح النعام . وما ألَوْتُ نصيحة لنفسى ولا قصرت فى اجتذاب المنفعة الى حيزى . فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزما وعدّه اذا تم رشدا . وهو أمر سُرى عليه بليل ، قضى بيقة .. ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذىُّ الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل ..

« وما سمحت القَرون بالاياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة : نبذة كنبذة فتيق النجوم ، وانقضابا من العالم .. وثباتا فى البلد ان حال أهله من خوف الروم ..

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتى فيه . والجاهل مغالب القدر ، فلهيت عما استأثر به الزمان ....

« ويحسن — الله — جزاء البغداديين ، فلقد وصفونى بما لا أستحق ، وشهدوا لى بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا على أموالهم عرض الجد ، فصادفونى غير جذل بالصفات ، ولا هش الى معروف الأقوام . ورحلت وهم لرحيلى كارهون ، وحسبى الله وعليه يتوكل المتوكلون » .

والرسالة صريحة فى الكشف عن مطاردة من نفسه — لا من

فقهاء بغداد أو غيرهم — طال عناؤه بها وتفكيره فيها ، حتى انسحب والقوم لرحيله كارهون . وسنقرأ فى رسالته الى خاله بعد قليل ، أنهم أظهروا الحزن لفراقه ، وتشبثوا به ، وودعوه باكين ، وكان أشد منهم حزنا على فراق بغداد وأصحابه بها .

وقال يودعها ويودعهم من قصيدة مطولة بالسقط :

نبىٌّ من الغربان ليس على شرع
يخبرنا أن الشعوب الى الصدع

أصدقه فى مِرية وقد امترت
صحابة موسى بعد آياته التسع

كأن بفيه كاهنا أو منجما
يحدثنا عما لقينا من الفجع

أودعكم يا أهل بغداد والحشا
على زفرات ما ينين من اللذع

وداعَ ضناً لم يستقل وانما
تحامل من بعد العثار على ظلع

فبئس البديل الشام منكم وأهله
على أنهم قومى وبينهم ربعى

ألا زودونى شربة ولو اننى
قدرت ، اذن أفنيت دجلة بالجرع

أبِيتُ فلم أطعم نقيع فراقكم
مطاوعة حتى غلبت على النشع

لبست حـداداً بعـدكم كل ليـلة
من الدهم، لا الغر الحسان ولا الدرع

أظن الليـالى وهى خـود غوادر
بردّى الى بغـداد ضـيقة الذرع

وكان اختيارى أن أمـوت لديكم
حميدا ، فما ألفيت ذلك فى الوسع

فليت حِمـامى حُمَّ لى فى بلادكم
وجالت رمامى فى رياحكم المِسع

فدونكم خفـض الحيـاة فاننـا
نصبنا المطايا بالفـلاة على القطـع

* * *

وحدد « أبو العلاء » تاريخ انسحابه من بغداد باليوم والشهر والسنة « عام أربعمائة ، لست ليال بقين من رمضان » فأعفى مؤرخيه وأعفانا من التخبط فى متاهة المرويات .

كما حدد طريق الاياب :

سلك طريق الموصـل وميافارقين ، ثم نزل بالحسنية ووصل بعدها الى آمد . وقد مر فى طريقـه بطرف حلب الشهباء فلم يدخلها — وفيها أخواله — اصرارا على ما اعتزم من عـزلة وانفراد .

وكانت الرحلة شاقة مضنية فيما وصف ، جمعت الى أخطار الطريق وعناء السفر ، أثقال انكساره وعبء همومه النفسية ،

وأعوزها الأمل الذى كان يحدوه فى طريق الذهاب ، فيعينه على مشاق الرحلة .

وبعض مؤرخيه ، يذكر من حديث ايابه أنه مر بموضع فى الطريق فطأطأ رأسه ، ولما سئل فى ذلك قال : أما هاهنا شجرة ؟ وكان قد مضى على مروره بهذا الموضع عام وبعض عام ، وما يزال يذكر قولهم له : طأطىء رأسك !

فان صح الخبر ، فهذا هو يفعل من تلقاء نفسه ، فيسمع أن الشجرة قد اجتثت من موضعها وما عاد فى حاجة الى أن يحترس.

لكن آثار هزيمته لم تجتث من نفسه ، فليطأطىء رأسه مقرا بها ، مستسلما لما تصنع به الأيام والليالى ..

بلا عناد ولا مكابرة !

واذا اتهمنا خبر الشجرة ، فلدينا على كل حال ما يغنينا عنه ، من حديث لأبى العلاء عن رحلته ، سجله فى رسالته الى خاله أبى القاسم على ، وكشف به عما كان يضنيه ويرهقه من آثار الهزيمة والانكسار :

« وجدت بغداد كجناح الأخيل ، حسن وليس فيه ما حمل :

ان العـــراق لأهـــلى لم يكن وطنا

والبـــاب دون أبى غســـان مسدود

« لنفسى أقول : أعييتنى بأشر فكيف بدردر ، وعصيتنى من شب الى دب . ليس بعشك فادرجى ، هذا أحق منزل بترك ، الصيف ضيعت اللبن ، الربيعَ أغفلت الكمأة ، وعلى المفازة أرقتِ السقاء ، عودى الى مباركك ..

« وكنت ظننت أن الأيام تسمح لى بالاقامــة هناك ، فاذا الضارية أحجأ بعراقها ، والأمة أبخل بصربتها ، والعبــد أشح بكراعه ، والغراب أضن بتمرته . ووجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة .. ولكن على كل خير مانع ..

اذا لم تستطع شــيئا فذره وجــاوزه الى ما تستطيع

يكفيك ما بلغك المحل . ان عجز ظِـلٌ عن شخصك فلا يعجزن عن عضو منك ...

« وكلما عرضوا على حاجة أعرضت عن تكليف المشقة ، لأنى أعتقد حكمة زهير فى قوله :

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه

ولا يعفهـا يوما من الـذل يسأم

ولو علمت أنى أرجع على قروائى ، لم أتوجه لهذه الجهة ، ولكن البلاء موكل بالمنطق ، والخيرة مغيبة .. لا يدرى الرجل بم يولع هرمه ، ولا الى أى أجمة يسوقه جده : (ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّنى السوء) .

« ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد ، فلقد أفردونى بحسن المعاملة وأثنوا على فى الغيبة ، وأكرمونى دون النظراء والطبقة . ولما آنسوا تشميرى للرحيل وأحســوا بتأهبى للظعن ، أظهروا كسوف بال وقالوا من جميل كل مقال ، وتلفعوا من الأسف ببرد فشيب ، وذرفت عيون أشياخ شيب ، فلا اله الا الله ، أى نابتة ليست لها راعية ...

« وأمرونى لرغبتهم فى صقبى منهم بأمور تنهى عنها القناعة وتكف دونها العادة ..

على حين أن ذكيت وابيض مفرقى
أسام الذى أعييتُ اذ أنا أمرد

أماوىّ ما يغنى الثراء عن الفتى
اذا حشرجتْ يوما وضاق بها الصدر

والله يحسن جزاءهم ، ان كان ما فعلوه حفاظا فهو مِنة عظيمة ، وان كان نفاقا فهو عشرة جميلة . وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير سرب ، ما أرقت منه قطرة فى طلب أدب ولا مال . ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسى باجتداء علم من عراقى ولا شامى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) .

والذى أقدمنى تلك البلاد مكان دار الكتب بها :

ولستُ وان أحببتُ من يسكن الغضى
بأول راج حاجةً لا ينالها

شرفا لذلك منزلا ، وللساكنين به نفرا ، ولماء دجلة واديا ومشربا :

وانى وتهيامى بعزة بعدما
تخليت من حبل الهوى وتخلتِ

لكالمبتغى ظلّ الغمامة كلما
تبوأ منها بالمقيل اضمحلت

وكنت اذا خبرت رجلا بمسيرى بانت فيه كآبة ، وبدت عليه

كبوة ، فكتمت ذلك عنهم كتمان المرأة ضرتها بالغيب ما فى جسدها من سوء وعيب ، فلما علق حرباء البين تنضبته ، ووقف صرد الفراق موقفه ، كنت واياهم كأبى قابوس وبنى رواحة :

قال لهم خيرا وأثنى عليهم
ووادعهم وداع أن لا تلاقيا

وسرت عن بغداد لست بقين من شهر رمضان ، سيرا تنحط ابله ونئط نسوعه وتوقع الغرق سفنه .. الغمرات ثم ينجلين ! ومررت بطرف الشهباء لأنى سلكت طريق الموصل وميافارقين ...

وردت مياها ملحة فكرهتها
فسقيا لأهلى الأولين ومائيا

« ... ولما نزلنا بالحسنية تساوى حامل المال وحامل الرمال، وقل بلاء الغادى أين قال [1] ، والرائح أين عرّس وبات . فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمد ، ثم عادت السبيل الى غوائلها ...

« ولما فاتنى المقام بحيث اخترت ، أجمعت على انفراد يجعلنى كالظبى فى الكناس ، ويقطع ما بينى وبين الناس ، الا من وصلنى الله به وصل الذراع باليد والليلة بالغد » ..

وتلفتنا هنا نغمة التواضع فى اعتراف أبى العلاء « بالنظراء والطبقة » وعدم احتفاله بصفات التكريم ، وقد كان صوته قبل الرحلة ، يجلجل بمثل ما سمعت من فخرياته ..

وقد سجل فى الرسالة ، وفى رسالته الأخرى الى أهل المعرة، شهادة العاصمة له بالفضل والعلم ، بما يؤكد لدينا أن رحلته ام

(١) من القيلولة .

تكن لهذا وحده ، وانما كانت الشهادة المرجوة بعض ما يتعلق به فى معركته مع نفسه ، عندما أراد أن يستبين مدى طاقتها على المضى فى المقاومة والتحدى والاستعلاء ، والا فلو كانت شهادة بغداد كل غايته ومبتغاه ، لأرضاه ظفره بها ، ولما عاد الى المعرة مهزوما مطاردا ، لا من فقهاء بغداد ، ولكن من نفسه !

وأبو العلاء يسجل هنا ، اعترافه الصريح بأنه لم يزهد فى بغداد كما زعم بعض دارسيه ، ولم ينصرف عنها طيِّبَ الخاطر ، وانما أحبها حبا صادقا وتمنى لو أسعفه الزمان على المقام بها ، لكن أعوزته الحيلة والوسيلة . وأدرك بعد فوات الأوان أنه لم يتزود لمجتمع العاصمة بالزاد الصالح والعدة الملائمة . فلقد شب عن الطوق ، وما عاد فى استطاعته أن يغير طبعه ويطوع نفسه لغير ما خلقت له ، ويروضها على غير ما جبلت عليه ، وهو كما قال فى رسالته الى خاله : وحشى الغريزة انسى الولادة . وقد كلفوه هنـاك ما ليس من طبعه ، وأرادوا أن يحملوه على أمـور « تنهى عنها القناعة وتكف دونها العادة » وساموه ، وقد جاوز سن الفتوة والشباب ، ما أعياه أن يسام وهو أمرد ...

وسيظل يذكر بغداد ، ويلتفت اليها من وراء أسوار عزلته ، ويحن الى من ترك هناك من صفوة الأصحاب . فيقول من قصيدة أرسلها الى صديقه أبى القاسم بن المحسن التنوخى :

يا عارضـا راح تحـدوه بوارقه

للكرخ سلمت من غيث ونجيتـا

لنـــا ببغــداد من نهــوى تحيتــه
فان تحملتهـــا عنـــا فحيِّيتـــا
يا ابن المحسِّن ما أنسـيت مكرمة
فاذكر مودتنـــا ان كنت أنسـيتا
سقيا لدجـلة ، والدنيـا مفـرقة
حتى يعود اجتماع النجـم تشتيتا
وبعــدها لا أريد الشرب من نهــر
كأنمــا أنا من أصــحاب طالوتا [1]
رحلت لم آت « قرواشا » أزاوله
ولا «المهذب» أبغى النيـل تقويتا [2]
والمــوت أحسن بالنفس التى ألفت
عز القنــاعة من أن تسأل القــوتا
بتة الزمان حبــالى من حبــالكم
أعــزز علىَّ بكون الوصــل مبتوتا
أعدُّ من صلواتى حفــظ عهدكم
ان الصـــلاة كتــاب كان موقــوتا

وقال فى قصيدته الى خازن دار العلم ببغداد :

رجــوت لهم أن يقربوا فتباعــدوا
وأن لا يشطوا فى المزار فقــد شطوا

---

(١) يشير الى الآية الكريمة : (فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى)
(٢) قرواش : اسم والى أمر بغداد ــ والمهذب : وزيره .

خليلى لا يخفى انحسارى عن الصبا

فحلاً اسارى قد أضر بى الربط

ولى حاجة عند العراق وأهله

فان تقضياها فالجزاء هو الشرط

سلا علماء الجانبين وفتية

أبنوهما حتى مفارقهم شمط

أعندهم علم السلو لسائل

به الركب لم يعرف أماكنه قط

وهل ينشطنى من عقالى اليكم

رضا زمنى ، أم كل شيمته سخط

وان خلطتنى بالتراب منية

فبعض ترابى من مودتكم خلط

وكتب بعد سنين يذكر أحد أصدقائه ، بأيام بغداد ، ومنزله بالقطيعة :

أذاكر أنت عصرا مر عندك لى

فليس مثلى بناس ذلك العصرا

أيام واصلتنى ودا وتكرمة

وبالقطيعة دارى ، تحضر النهرا

والآن أشرح أمرى غير معتمد

فيه الاطالة كيما تعلم الخبرا

شدّ الزمان وأشوتنى حوادثه

حتى مللت وذمت نفسى العمرا

وحلّتْ كلىٍّ سوى شيب تجاوزنى
ولم يبيض على طول المدى الشعرا
جنيت ذنبـا وألهى خاطرى وسن
عشرين حـولا ، فلما نبّه اعتذرا

* * *

فماذا صنعت بغداد بمن قصد اليها فى عز رجولته ، مشوقا راجيا متعلقا بأذيال الطموح مستبسلا فى المقاومة ، فردته — على حبه لها — الى عزلة صارمة ، مهيض الجناح مكسور الخاطر ضائع الحيلة ؟

لم تفعل شيئا الا أنها ردته الى نفسه ، ونبهت وجدانه من « غفلة الوسن » كما قال ، وكشفت له عن عقم محاولته الهروب من ذاته ، وتحدى محنته !

ولمّ شتات طموحه وأشلاء أمانيه ، وركب راحلته ملقيا زمامها الى من يقوده عائدا به من حيث جاء ..

وأمضى أيامه ولياليه فى طريق الاياب ، يجتر ذكريات مقامه ببغداد . ويطيل التفكير فيما هو مستقبل من عزلة وقيود ، موزع الخواطر بين حزن على فراق « أنفس مكان لم يسعف الزمان باقامته فيه » وشوق الى الراحة من أوهام الطموح وشطط المكابرة وأكاذيب المنى ، ولهفة على لقاء أمه الحبيبة التى بلغه أنها مريضة بالمعـرة ..

ويرتجف قلبه بين أضلعه اشفاقا من المخبـوء له فى الغيب المضمر . وربما ألم به الكرى فساورته رؤى يقيسها على ما كان

من سوء بخته ، فلا يرى فى الجميل منها الا أضغاث أحلام ، أما المفزع المخيف فنذير شر واقع لا محالة :

الى الله أشكو أننى كل ليلة
اذا نمت لم أعدم خواطر أوهام
فان كان شرا فهو لابد واقع
وان كان خيرا فهو أضغاث أحلام

حتى الرؤيا ، لم يفته تسجيلها ، ولا كتم عنا أمرها ..

ولقد كان فيما رأى من أحلام الكرى ، أن أحد نواجذه سقط ، وذكر أمه المريضة لكنه نحى الخاطر الرهيب ، وقد استعظم أن يكون تأويل رؤياه موت أمه ، وعد ذلك ضلالا ما بعده من ضلال ، فأين الناجذ من الأم ، وانه لواجد عوضا عن سن سقطت ، أما الأم فلا عوض عنها ..

ولكن خواطره تركزت حول أمه ، وهو يقطع المرحلة الباقية من رحلة الاياب ..

موت الأم

« يا سلوة الأحباب موعدك الحشر .. موعد والله بعيد ! » :

مضـــت وقـــد اكتهلت فخلت أنى
رضـــيع ما بلغت مـــدى الفطـــام

سألت متى اللقـــاء فقيـــل حتى
يقـــوم الهـــامدون من الرجـــام

فليت أذين يوم الحشـــر نادى
فأجهشت الرمـــام الى الرمـــام

(سقط الزند)

آب الضرير الى منزله مثخنا بالجراح ، ليجد فى انتظاره طعنة مصمية ، أعدتها له الدنيا تحية الوصول !

غال الموت أمه قبل أن يلقاها ، فرحلت عن الدار بلا وداع .

واذا لم يكن قد بقى فى كيانه موضع لسهم ، فان الطعنة الجديدة هزت الكيان الجريح بفرط ضراوتها ، وردته أشبه بطفل رضيع يتيم ، فقد سر وجوده ووسيلة حياته ..

وليت الصدمة مع ذلك أذهلته لينجو بالذهول من فادح ألمه وأساه ! لقد تلقاها بملء وعيه ، وأبى أن يتقبل فى فقيدته العزاء ، وانطلق صوته فى اثر الراحلة :

سمعتُ نعيها صمى صمام
وان قال العواذل لا همام

وأمتنى الى الأجداث أمٌّ
يعز عليَّ أن سارت أمامى

وأكبر أن يرثيها لسانى
بلفظ سالك مجرى الطعام

كأن نواجذى رديت بصخر
ولم يمرر بهن سوى كلام

مضت وقد اكتهلتُ فخلت أنى
رضيع ما بلغت مدى الفطام

فيا ركب المنون أما رسول
يبلغ روحها أرج السلام

سألت متى اللقاء فقيل حتى
يقوم الهامدون من الرجام

ولو حَدّوا الفراق بعمر نسر
طفقت أعدُّ أعمار السِمام

فليت أذين يوم الحشر نادى
فأجهشت الرمام الى الرمام

* * *

ولا نعلم على وجه اليقين ، ما اذا كان أبو العلاء قد زار قبر أمه قبل أن يدخل محبسه ، أم أنه بدأ ينفذ قراره بلزوم مسكنه من اللحظة الأولى لوصوله الى المعرة ؟ وربما استبعدنا أن يتلقى

النبأ الفاجع اثر وصوله ، فلا يسعى الى قبرها محييا مودعا الى لقاء لا يدرى متى يحين أوانه ، الا أن يكون امتناعه عن زيارة القبر ، تعبيرا عن يأس غليظ فادح ، وشعور بعقم المسعى الى جدث أصم ، يضم الجسد الهامد لمن كانت ملء حياته ، فصارت رمة بالية ، لا تحس طيف زائر ولا تعى صوت داع :

وقفت على أجـــداثهم وســألتهم
فما رجعــوا قولا ، ولا ســألوكا

* * *

اذا الحـــىّ ألبس أكفـــــانه
فقـــــد فـــنى اللبس واللابس
وبـــلى المحيـــا ، فلا ضـــاحك
اذا ســـرّ دهـــر ولا عـــابس
ويحبس فى جـــــدث ضـــيق
وليس بمطلقـــــــه الحـــابس
يجـــاور قـــوما أجـــادوا العظات
وما فيهـــــم أحـــــــد نابس

* * *

ولم يسمعوا قولا ، أمن صمم بهم
ولم يفهمـــوا رَجْعا كأنهم خُرْس

« سلم الله عليكم أهلَ ديار ، لا يشعرون بتبلج الصبح ولا ترحل النهار . أشتاق اليكم والى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجساد ملتئمة ، ولا المنازل برحاب ...

« كيف أصبحتم أهل المنازل الدارسة ؟ ان ما أصابكم للخطب الجليل .. يهتف بكم الصائح فلا يجاب » .

« ما فعل التراب بالجثث ؟ فعل بها فعل المجتث .

(الفصول والغايات)

* * *

وانكمش فى منزله الذى قرر أن يكون له سجنا ما عاش ، وبدأ فأملى الى خاله « أبى القاسم على » بحلب رسالته التى استهلت بالتفجج واللوعة على الراحلة ، وضربت يوم الحشر للسلو موعدا .

« كتابى أطال الله بقاء سيدى .. من معرة النعمان ولكل نبأ مستقر . وردتها بعد سآمة ورود كعب بن مامة ، فانا لله وانا اليه راجعون ، وله الحمد ممزوجا به الدمع ، مستكنّا له من الوجد السمع . وصلى الله على سيدنا محمد وعترته ، صلاة يثقل بها لسانى حزنا ، وترجح فى المحشر قدرا ووزنا . ثم أذكر قصصى بعد ذلك :

ألا ليتنى والمـــرء ميت وما تغنى عن الحدثان ليت

« رحمكِ الله من ساكنة رمس ، أصبحت حياتك كأمس :

فان ينقطـع منـك الرجـاء فانه

سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

لا آمل بعدها خيرا ، ولا أزيد فى المحن الا ايضاعا وسيرا :

صـــلى الاله عليــكِ من مفقــودة

اذ لا يلائمـك المكان البلقـــع

أنىّ حللتِ ، وكنت جِدّ فروقة
بلـــدا يمر به الشـــجاع فيفـــزع

لا بارك الله فى الدنيــا اذا انقطعت
أسباب دنياك عن أســباب دنيــانا

يا سلوة الأيام موعدك الحشر ، موعد والله بعيد ! لا سلوة حتى يئوب عنزى الى القرظة ، ويرجع النعمان الى الحيرة ، ويبعث نبى من مكة ! لو لم تكن الآجال ذبرا — أى كتابا — لوجب أن أقتل بها صبرا . على أنى والله قد أعلمتها أنى مرتحل وأن عزمى على ذلك جاد مزمع ، فأذِنتْ فيه . وأحسبها ظنته مدقة الشارب ووميض الخالب ، ولكل أجل كتاب . وحزنى لفقدها كنعيم أهل الجنة كلما نفد جدد ، وشرحه املال سامع وافناء زمان ... » .

*

وتذكر المحزون — بعد حين — رؤياه التى سلفت ، وهذا هو تأويل الرؤيا ، فى الواقع واليقظة ، لا فى خاطرات الوهـم وهواجس الأحلام ، وانه ليفتقد العزاء على تطـاول الأيام ، ولا عزاء الا فيما يرجو من لحاقه بأمه ، حيث يؤنسه أن يدفنه آله ، الى ظل قبرها :

خـلو فـؤادى بالمودة اخـــلال
وابلاء جســـمى فى طـلابكِ ابلال

ولى حاجـة عنـد المنيــة : فتكها
بروحى والأهــوال مذ كنّ أهوال

اذا مت لم أحفـل ، أبالشام حفرة
حوتنى أم ريم بريمـان منهـال
على أن قلبى آنس أن يقـال لى
الى آل هـذا القبر يدفنـك الآل
دعـا الله أمّـاً ليت أنى أمامهـا
دُعيتُ ولو أن الهـواجر آصـال
مضت وكأنى مرضع ، وقد ارتقت
بى السن حتى شكل فودى أشكال
أرانى الكرى أنى أصبت بنـاجذ
ألا ان أحـلام الرقاد ضـلال
أجارحتى العظمى تشـبه سـاهيا
بسِنٍّ لها فى ساحة الفـم أمثـال
وبين الردى والنـوم قربى ونسبة
وشـتان برء للنفوس واعـلال
اذا نمت لاقيت الأحبـة بعـدما
طوتهم شـهور فى التراب وأحوال

* * *

وبموت أمـه ، بدأ احساسه العميق بأنه أمسى أشبه بغصن مجتث ملقى ، بلا جذور ولا فروع . فلقد كان من بين ما قر عليه عزمه وهو ينسحب الى محبسه ، ألا يتزوج ولا يلد ، كيلا يبتلى ولدا له بمحنة الوجود . وها قد مضى أبواه ، ولن يلبث ماء الحياة أن يجف فيه وينضب ، فيصير الى حذف وادغام :

فصرفنى وغيرنى زمـــان سيعقبنى بحــذف وادغام

وسيظل هذا الخاطر يلح على وجدانه فى طور عزلته ، فيتمثل نفسه — فى اللزوميات — نبتا مر عليه يوم وليلة منفضين من الزاد ، فاستأصلاه جَزًّا :

كأنى نبت ، مر يوم وليـــلة علىّ وكانا منفضين فجــزّانى

* * *

وظل حزنه على أمه كلما نفد جدد كما قال .. وأوغل الجرح فى أعماقه ، لتنكأه الرزايا تلم به من حين الى حين ، فيخطف الموت أخاه الأصغر أبا الهيثم سنة ٤٠٥ ، ويتتابع الراحلون من الأهل والأحباب ، الى وادى العدم ومتاهة النسيان :

وصوت أبى العلاء فى أثرهم ، يرجع فى شجن وأسى :

« يا قلب ، لعل أسودك زنجى من ولد حام .. ألا تبتئس لأول من فعل معك الجميـــل ؟ ألا تجزع لتقــوض الأقربين ؟ يا شمال ، ألم يحزنك شلل اليمين ؟ أقمتُ وتحمل الناس وان لحاقى بالظاعن لوشيك . عند الله أحتسب ما رزئت من أهل ولقيت من هم كاد الغربيب له يشيب ، وتعب رسخ ألمه فى الأعضاء ..

« يا معشر أهلنا الصالحين ، بئس القوم نحن ! لم نوفكم الواجب من الوفاء : شربنا بعدكم البارد ولبسنا ناعم اللباس ، وأظللتنا الجدر وأفنية الدور ! لو كنا أهل حِفاظ ، عِفنا بعدكم النطف العذاب .. » .

(الفصول والغايات)

ويجأر فى اللزوميات :

لعمرى لقد وكل الظاعنون بقلبىَ نجما بطىء الغروب
أقول وقد طال ليلى علىّ أما لشباب الدجى من مشيب !

*

وما كان أطول ليله !

من سنته الرابعة بدأ ذلك الليل ، ممتدا الى آخر العمر ..

وقد خيل اليه حينا فى ميعة الصبا وفتوة الشباب ، أنه مستطيع أن ينسخ ذلك الليل بنهار متألق الضياء ، وأن يجعل سراه فى خضم الظلمة ، تحليقا مع النجوم فى مسبح الفلك ..

حتى آب من رحلته الى بغداد وقد انجابت عنه غشاوة الوهم، وأعوزه ما تعلل به فى طريقه الى العزلة ، من الأنس بقرب أمه !

وأوحش ليله واشتدت وطأته ..

وتتابعت رسائله من عزلته ، وما أنشد من لزومياته وأملى من فصوله وغاياته ، والغفران وملقى السبيل ، صادقة التعبير عن ذلك الأديب الانسان الذى كشف له الغطاء عن نفسه ، واستروح الى الافضاء بمطوى همومه ومواجعه ..

وتلاشت نغمة التعالى المسرف والتفاخر الجامح والطموح المشتط والمكابرة العنيدة ، لنسمعه يقول فى (الفصول والغايات) وقد بدأ يمليها بعد عودته من بغداد :

« ما أضيق علىّ دنياى ! وأنت — مولاى — المفزع اذا بطل كل احتيال » .

« ان جناحي لمهيض ! طِرتُ فى الصعيد فوقعتُ غيرَ بعيد ، والله منهض المنهاضين » .

« الله ملك الملوك ، وأنا معترف مقر ، أن شهد الدنيا مقر ، وأن غنيها مفتقر . أعوزنى فيها مسكن آوى اليه ، وتبوأت الناسجة — أى العنكبوت — بين المثاب » .

« أضحك فلا ضحكت ، وأنا بالبكاء حقيق مما كان ويكون » .

« أرتفع والقدر يكبنى ، يألبنى دائما ويلبنى ، كم أستنسر وأنا من البغاث ! » .

وينشد فى اللزوميات :

ربِّ متى أرحل عن هذه الدنـ
ـيا فانى قد أطلت المقام

لم أدر ما نجمى ولكنه
فى النحس مذ كان ، جرى واستقام

فلا صديقى يترجى يدى
ولا عدوى يتخشى انتقام

والعيش سقم للفتى منصب
والموت يأتى بشفاء السقام

* * *

رمانى من له وترى وقوسى
وكفى ، والسهام ، فكيف أرمى

* * *

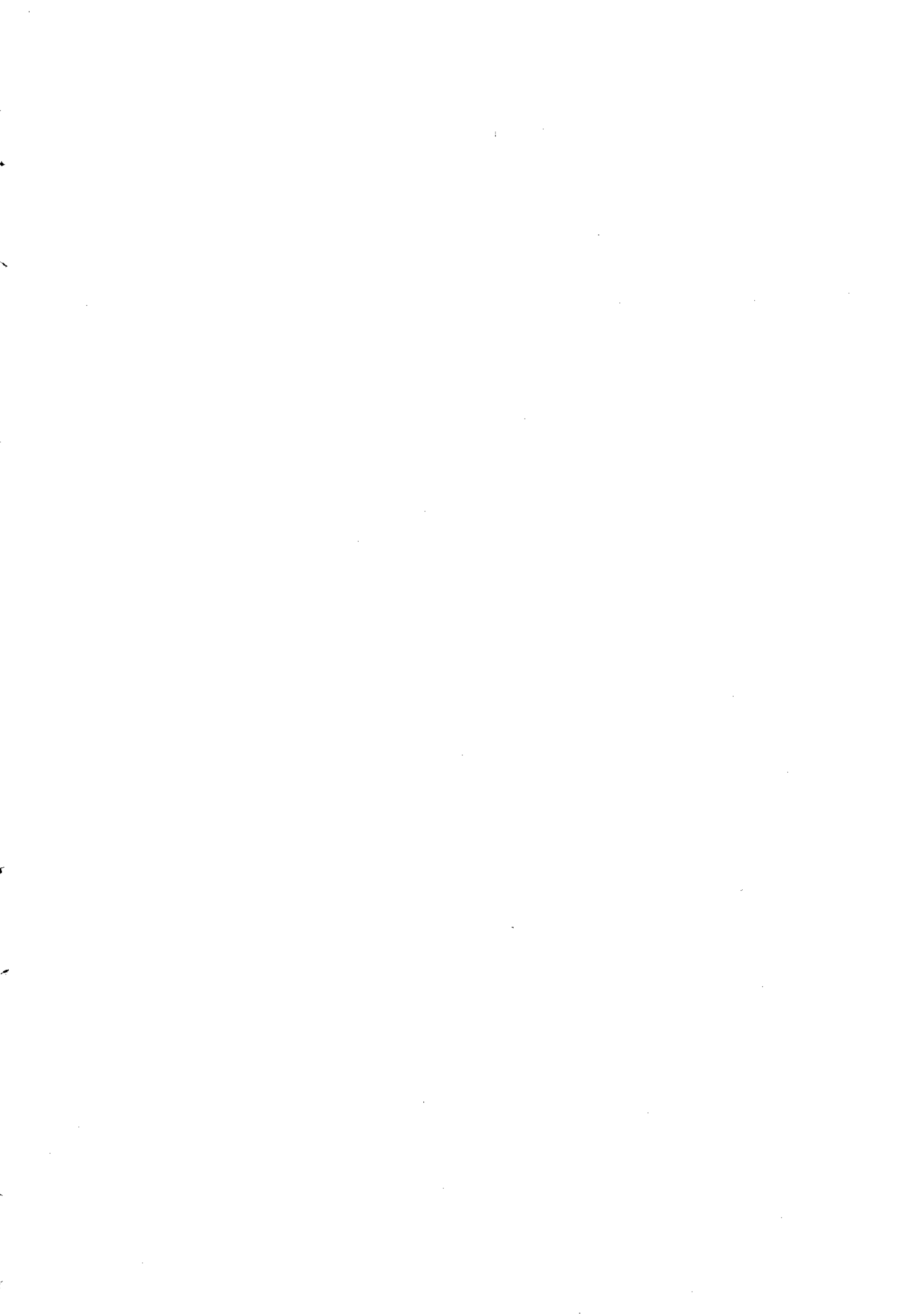
اذا طفئت فى الـثرى أعـــين
فقـــد أمنت من عمى أو رمـــد
* * *
فيـا دار الخســار ألىِ خـلاص
فأذهب فى الجنـوب أو الشـمال
وظلم أن أحـــاول فيـك ربحـا
ولم أخــرج اليـكِ برأســمال
* * *
مــلام لنفسى حـق عنـدى لمثلها
وكنت حقيقـا عنـدها بمـــلام
واظــلام عــين بعــده ظلمة الثرى
فقــل فى ظلام زيد فــوق ظــلام
* * *
ان يرحــل النــاس ولم أرتحــل
فعن قضـــاء لم يفـــوض الىّ
خـُلـِّفتُ من بعــد رجــال مضــوا
وذاك شـــر لى وشـــــر علىّ

لشد ما تغير ذلك الشاب الذى عرفناه فى الطور الأول من حياته ، قبل أن يرحل الى بغداد !!

الفصل الرابع

المرحلة الثانية
معركة المجاهدة

رهين المحبسين
صائم الدهر
السرّ المذاع
الأديب الحرّ
خصومة واتهام



رهين المحبسين

هــذا زمــان ليس فى أهــله الا لأن تهجــــره أهـــلُ
حانَ رحيــل النفس عن عالم ما هو الا الغــدر والجهــل

(اللزوميات)

بدأ من اللحظة الأولى ينفذ ما فرضه على نفسه من قرار بالعزلة عن الناس والانقطاع عن الدنيا والحرمان من متعها ولذاتها، فيلزم بيته لا يبرحه ، ويمتنع عن الزواج ، ولا يأكل اللحوم والبيض والألبان ، بل يقنع من الطعام بما يمسك رمقه مما تنبت الأرض ، ومن اللباس بما يستره من خشن الثياب ، ومن الفراش بحصير من بردى أو لباد ، وأن يروض نفسه على الزهد فى الدنيا والسلو عنها ، كيما يهون عليه احتمال محنة الوجــود ووطأة الحرمان .

ذلك ما استقر عليه عزمه وأجمع عليه أمره ، منذ انسحب نفسيا ثم جسميا من بغداد ، فكيف كان مسلكه ، وماذا أطاق من ذلك كله ، وماذا أعياه أن يطيق ؟

* * *

أما العزلة ، فالتزم بها من جانبه الى أقصى المدى : لبث تسعا وأربعين سنة فى محبسه بمعرة النعمان ، لم يغادره الا مرة واحدة

م تنكرر ، حين حمله قومه على الخروج ليشفع لهم لدى « أسد الدولة صالح بن مرداس : صاحب حلب » وكان قد خرج الى المعرة ليخمد حركة عصيان من أهلها ، سببها — فيما نقل ابن العديم والقفطي والذهبي والصفدي — « أن امرأة دخلت جامع المعرة صارخة ، تستعدى المصلين على صاحب الماخور الذى أراد اغتصابها . فنفر كل من فى الجامع ، وهدموا الماخور ونهبوا ما فيه . وكان أسد الدولة فى نواحى صيدا فأسرع الى هناك ، وعسكر بظاهر المعرة وشرع فى قتالها ورماها بالمنجنيق ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا ، اقامة لهيبة السلطان . فلما رأى أهل المعرة ألا قبل لهم بذلك ، سعوا الى أبى العلاء يسألونه الخروج الى أسد الدولة فى معسكره بظاهر المعرة ، والشفاعة لهم عنده . وما زالوا به حتى خرج متوكئا على يد قائد له ، وقيل لصالح : ان باب البلدة قد فتح وخرج منها رجل يقاد كأنه أعمى . فقال : هو أبو العلاء ، أوقفوا القتال . وأذن له وأكرمه وعرفه شوقه الى لقائه ، ثم سأله : ألك حاجة ؟ فلما ذكر له أنه جاء شفيعا لقومه، أجاب صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء — يعنى المعرة . ثم استنشده فأنشد ارتجالا :

تغيبتُ فى منزلى برهـــة	ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل	وحم لروحى فراق الجسد
بُعثت شفيعا الى صالح	وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحمام	وأسمع منه زئير الأسد

قال صالح : بل نحن الذين تسمع منا سجع الحمام ، وأنت الذى نسمع منه زئير الأسد . ثم أمر بخيامه فوضعت ، ورحل عن المعرة » .

وعاد أبو العلاء الى محبسه وهو ينشد ردا على اعتراف القوم بفضله :

نجى المعـرة من براثن صـالح
رب يداوى كل داء معضـل
ما كان لى فيها جنـاح بعوضـة
الله ألحقهـم جنـاحَ تفضـُّل

والشعر من اللزوميات . وفى الديوان كذلك قصيدة أخرى، فى هذه الحادثة ، منها :

أتت جامعٌ يوم العـروبة جامعـا
تقص على الشـهاد بالمصر أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصـوتها
لخِلت سـماء الله تمطـر جمـرها
فهدّوا بنـاء كان يأوى فنـاءه
فواجـرُ ألقت للفواحش خـُمْرَ ها
ألفنـا بلاد الشـام الف ولادة
نلاقى بها سـود الخطوب وحمرها

. . . .

فانى أرى الآفـاق دانت لظـالم
يغـر بغـاياها ويشرب خـَمرها

ولو كانت الدنيا من الانس لم تكن
سوى مومس أفنت بما ساء عمرها

أما زمن الحادثة ، فبين عامى ٤١٧ ، ٤١٨ هـ . أى بعد نحو ثمانى عشرة سنة أمضاها فى محبسه لم يبرحه ، ولن يبرحه منذ عاد من شفاعته لدى صالح ، الى أن خرج من الدنيا بعد بضع وثلاثين سنة ، محمولا على الآلة الحدباء الى قبره .

ولكن الذى لم يستطعه ، هو أن يحول دون اقتحام الناس عليه عزلته ، ولقائهم اياه فى محبسه .

وقد حاول مخلصا ، أن يصرفهم عنه بكل ما أطاق من جهد ، وأفلح فى ذلك الى حين ، فما سمح لأحد بالدخول اليه ، الا لخاصة أهله الأدنين . ويقول ابن العديم :

« أقام مدة طويلة فى منزله مختفيا لا يدخل عليه أحد . ثم ان الناس تسببوا اليه — يعنى التمسوا الأسباب — وألحوا فى طلب الشفاعة لديه من أقاربه الأدنين » ثم نقل قصيدة لأبى صالح محمد بن المهذب ، كتبها الى أبى الهيثم ، متوسلا به الى أخيه أبى العلاء ، ومنها :

أراها أبت الا النوى بىَ مغرما
ولو رضيتُ هجرانها لكفانى
تضن باهداء السلام تجاهلا
ولو علمت أن الرقاد جفانى
هبى هجعة كيما أرى الطيف مرة
بها تحت أرواق الدجى ويرانى

لعلى أشفى علتى بلقائه
فكم من خليل زارنى فشفانى
وود كريم لو ينال خلائقا
هى النجم زادته علو مكان
تخير قلبى والحشا ، ثم انه
ثوى بمحل عن سواه مصان
أبا الهيثم اسمع ما أقول فانما
تعين على ما رمت خير معان
قريضى هجاء ان حرمت مديحه
لأروع وضاح الجبين هجان
أطل على بغداد كالغيث جاءها
به سعد نجم فى أجل أوان
نضاها ثياب المجد وهى لباسها
وبدلها من شدة بليان
فياطيب بغداد وقد أرجت به
على بعدها الأطراف من أرجان
غدا بكم المجد المضىء وانه
ليغمر من أضوائه العمران
نأى ما نأى والموت دون فراقه
فما عذره فى النأى اذ هو دان
فكن حاملا منى اليه رسالة
تبين اليه فى هضاب أبان

فان قال أخشى من فــلان تشــبها
فقـــل ما فلان عندنا كفـــلان
هو الخِـــل ما فيه اختـــلال مودة
فلا تخش منـــه زلة بضـــمان
فان خنتُ عــهدا أو أســأت خليقة
ولم يك شــأنى فى المودة شــانى
فلا أحسنتْ فى الحرب امساكَ مقبضى
يمينى ، ولا يسراى حفظَ عنــانى
لعل حيـــاتى أن تعــود نضــيرة
لــديه كما كانت ، وطيبُ زمــانى

والقصيدة لا تعنينا الا من حيث دلالتها على ما كان يعنيه أبو العلاء بقوله عند منصرفه من بغداد : « وأجمعت أمرى على عزلة وانفراد » ومبلغ صدقه فيما اعتزم ، فأبو صالح محمد بن المهذب ، من أعيان العصر فضلا وعلما وتقى ، وهو ابن عمــة أبى العلاء ، ورفيق صباه وزميله فى الدرس ، فالقصيدة تقدم لنا شاهدا على أن باب أبى العلاء فى عزلته ، كان موصدا حتى على ذوى الرحم والقربى ، من أمثال أبى صـــالح الذى يمت الى الضرير المعتزل بأقرب الأسباب .

* * *

ورقّ قلب أبى العلاء لمثل ذلك التوســـل الملح ، وكرهت له مروءته ألا يستجيب لدعاء من وقفوا ببابه ضارعين . وفتح الباب، لا ليخرج منه أبو العلاء الى الناس ، ولكن ليدخل عليه الزائرون

من شتى أنحاء العالم الاسلامى ، فصار منزله الذى أراده سجنا له ، دارا للعلم يحج اليها الطلاب من أقطار المشرق والمغـرب ، يقرأون عليه ويتعلمون منه ويأخذون عنه .

وفرغ للتدريس والاملاء ، فاذا خلا بنفسه فى غير أوقات الدرس ، فللعبادة والتأمل .

قال القفطى وابن خلكان :

« وأخذ عنه الناس ، وسار اليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار » .

وقال ابن فضل الله العمرى :

« وأخذ عنه خلق لا يعلمهم الآ الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحر . واستفادوا منه ، ولم يذكره أحـد منهم بطعن ، ولم ينسب حديثه الى ضعف أو وهن » .

وفى هذه المرحلة الخصبة الطويلة من عمره ، احتاج الى عدد من الكتبة الحذاق الأمناء ، يفرغون لكتابة ما يمليه ، واختص به نفر من الكتاب المجودين ، يدونون رسائله ومصنفاته ، ويكتبون عنه ما يمليه من الاجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه . وفى كتاب (الانصاف والتحرى) لابن العديم ، فصل فى ذكر هؤلاء الكتاب المختصين بأبى العلاء ، منهم :

ولدا أخيه أبى المجد محمد : أبو محمد عبد الله بن محمد ، وكان برا بعمه ملازما لخدمته والكتابة له ، ويقع بخطه من المصنف الواحد نسختان أو أكثر . وقد ولى قضاء المعرة على كره من عمه ، وكان مولده بالمعرة سنة ٣٩٧ هـ . ووفاته سنة ٤٦٥ . وأبو الحسن

على بن محمد ، تولى قضاء المعرة وقضاء حماة سنة ٤٥١ هـ بعد اعتزال أخيه القاضى أبى محمد عبد الله ، وقد نسخ بخطه جميع أمالى عمه .

وابن أخيه أبى الهيثم : الشيخ أبو نصر زيد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٤٤٢ هـ . وكذلك ولده منافر بن زيد ، وقف بخطه كتبا من تصانيف أبى العلاء عم أبيه . تدل على فضلة وحسن نقله .

وجعفر بن أحمد بن صالح بن سليمان بن داود بن المطهر التنوخى ، وكان من أعيان كتاب أبى العلاء ، وقرأ عليه كثيرا من كتب الأدب ، وروى عنه « وكان خطه على غاية من الصحة والضبط » .

وابراهيم بن على بن الخطيب ، الذى اشتهر بالضبط والاتقان واجادة الخط . كتب معظم كتبه وتصانيفه ، كما كتب عنه فى السماع عليه والاجازة عنه .

وأبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم المعرى ، وكان من العدول الأمناء الفضلاء ، تولى أوقاف الجامع بمعرة النعمان، « ولزم أبا العلاء وكتب مصنفاته بأسرها ، وربما كتب من المصنف الواحد عدة نسخ ، غاية فى الضبط » .

وولده أبو الفتح محمد بن على ، وكان كوالده ملازما لخدمة أبى العلاء والكتابة له .

وقد اعترف أبو العلاء بجميل كتّابه ، فذكر فى بعض شعره

ابن أخيه أبا محمد القاضي ، شاكرا له صادق بره وكريم فضله ، واياه عني بقوله :

وقاض لا ينام الليل عني ... وطول نهاره بين الخصوم

وقوله :

أعبدَ الله ما أسدى جميلا ... نظير جميل فعلك غير أمي
سقتني درها ، ودعت ، وباتت ... تعوذني ، وتقرأ أو تسمي
هممتَ بأن تجنبني الرزايا ... فرمت وقايتي من كل همي
كأن الله يلهمك اختياري ... فتفعله ولم يخطر بوهمي
حمدتك في الحياة أتم حمد ... وأيامي ذممتُ أتم ذم
أجِدّكَ ما تركت وأنت قاض ... تعهّدَ مقعد أعمى أصم

كما ذكر بالحمد والثناء ، كاتبه أبا الحسن علي بن عبد الله فقال :

« لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده الا أن أضطر الى غير ذلك . فأمليت أشياء وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمني بذلك حقوقا جمة وأيادي بيضا ، لأنه أفنى فيّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » .

أما ولده أبو الفتح بن علي ، فقد صنف أبو العلاء كتابا باسمه عنوانه (المختصر الفتحي) كما اختصه بكتابه (عون الجمل) — آخر كتاب أملاه — وفيه شرح لبعض ما في (كتاب الجُمل) لأبي اسحق الزجاجي ..

وسجل شــهادته لبنى أبى هاشم بالأمانة والورع والثقة والضبط » فى (رسالة الضبعين) التى كتبها الى « معز الدولة ثمال بن صالح » يشكو اليه فيها تحريف رجلين لبيت من شعره فى (لزوم ما لا يلزم) ليتهماه بالالحاد . قال :

« وفى حلب حمــاها الله نسخ من هــذا الكتاب — يعنى اللزوم — بخطوط قوم ثقات يعرفون ببنى أبى هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه . وان أحضرت — النسخ — ظهرت الحجة بما قلت فيــه » .

* * *

واشتهر من تلاميذه :

على بن المحسن بن على التنوخى القاضى » وهو من أقرانه ، وقد لقيه ببغداد ، وكان له صاحبا وصديقا طول مقامه بها . وفيه يقول أبو العلاء القصيدة التائية التى نقلنا بعض أبيات منها ، فى حديث الرحلة الى بغداد .

وأبو زكريا الخطيب التبريزى ، من أعيان القرن الخامس .

والامام أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهر .

والفقيه أبو تمام غالب بن عيسى الأنصارى الأندلسى .

والخليل عبد الجبار القزوينى ، وأبو طاهر محمد بن أحمد الأنبارى ، وأبو الحسن على بن همام ، ونصر بن صدقة القابسى النحوى ، الذى رحــل الى المعرة فلازم أبا العــلاء وقرأ عليه وأخذ عنه .

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الاصبهانى ، وكان من فضلاء العصر ، قصد الى معرة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه الى أن مات . وله صنف أبو العلاء كتابه « ضوء السقط » شرحا لسقط الزند .

ولم يقبل قط أن يأخذ على العلم أجرا ، بل انه كان يود لو أن موارده المالية المحدودة ، احتملت عبء ضيافة تلاميذه . وما سمع — فى المرحلة الثانية من عمره — يشكو من ضيق ذات يده ، الا لقصوره عن أداء حق الضيافة ، فكان — فيما نقل القفطى والذهبى : « يتأوه من ذلك ويعتذر الى قاصديه » .

وحاول مع ذلك ، أن يقتر على نفسه فى القليل من رزقه ، ليوفر من دخله المحدود ما كان يعده زكاة مروءته ، ذكر ابن العديم فى (الانصاف) أن أبا العلاء « كان لا يقنع بالدفع الى من يقومون على خدمته ، بل كان يدفع من ايراده الضئيل شيئا لأولى الحاجة ممن يتردد اليه » . ثم نقل باسناد عن الخطيب التبريزى أنه قال :

« كان المعرى يجرى رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ويتردد لأجل الأدب اليه » .

كما نقل مما قرأه بخط أبى الفرج محمد بن أحمد بن الحسن ، الكاتب الوزير ، فى وصف رحلته الى الحج من أذربيجان ، ومروره بالمعرة للقاء أبى العلاء :

« وله معاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون عليه ويكتبون له ، وورّاق برسمه مستأجَر ،

ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على اللائذين به وفقراء القاصدين له من الغرباء » .

وقد أبت عليه مروءته ، أن يقبل من تلميذه الخطيب التبريزى — وكان فقيرا — نفقة اقامته التى طالت عنده . وفى الخبر أن الخطيب « كان قد أعطاه صرة فيها ذهب ليدفعها الى من يختار ، كى ينفق منها على ما يحتاج اليه من طعام ، ويتوفر هو على القراءة والدرس . فأخذ أبو العلاء الصرة ، وهيأ لتلميذه مطالب العيش طول مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أن ذلك من ذهبه الذى دفعه الى الشيخ . فلما حان وقت رحيله وودع شيخه ، دفع اليه صرته بعينها لم تمس » ..

* * *

واتصل به من غير التلاميذ وطلاب العلم والأدب ، عدد من أعلام العصر . اما بالرحلة اليه ، واما بمراسلته . واشتهرت رسائله الى بعضهم ، مثل (رسالة الغفران) التى أملاها ردا على رسالة تلقاها من معاصره الأديب الحلبى ، على بن منصور المعروف بابن القارح . ورسائله الى داعى الدعاة أبى نصر هبة الله بن موسى ابن أبى عمران ، ردا على رسائل تلقاها منه ، يجادله فيها عن امتناعه عن أكل اللحوم وايذاء الحيوان .

واتصل به كذلك ، عدد من الأمراء ، يسألونه تشريفهم بتصنيف كتب برسمهم . وأجاب دون أن يأخذ على شىء منها أجرا : صنف كتاب « تضمين الآى » لأحدهم ، وهو يتضمن العظات والحث على تقوى الله تعالى ، مع الاتيان بآية من القرآن

الكريم فى ختام كل فصل من الكتاب . وصنف كتاب « تاج الحرة » فى عظات النساء بخاصة ، لاحدى الجليلات من النساء ، ويقول ابن العـديم : « ويغلب عـلى ظنى أنها طرود ، زوج ابن مرداس . ومقداره أربعمائة كراسه » .

وألف كتاب « سجع الحمائم » لبعض الرؤساء اجابة لطلبه ، وهو على لسان الحمامة فى العظة والحث على الزهد . ومقداره ثلاثون كراسة .

وكتاب « الجلىّ والجلىّ » سأله فيه رجل من أكابر الحلبيين وأعيانهم . مقداره عشرون كراسة .

وللأمير عزيز الدولة شجاع بن فاتك — والى حلب من قبل المصريين فى أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر — ألف ثلاثة كتب : الصاهل والشاحج . ولسان الصاهل والشاحج ، عـلى لسان فرس وبغل . والقائف ، وفيه أمثال على معنى كليلة ودمنة .

وألف لسند الدولة الكتامى ، والى حلب من قبل المصريين ؛ (الرسالة السندية) و (رسالة العرض) .

و (رسالة الاغريض) كتبها الى أبى القاسم الحسين بن على المغربى ، وكان قد سير اليه كتابه الذى اختصر فيه (اصـلاح المنطق) لابن السكيت .

وعمل للأمير عزيز الدولة ثابت بن ثمال بن صالح ، كتاب (اللامع العزيزى) فى تفسير شعر المتنبى .

وبعث اليه أبو اليمن المسلم بن الحسن ، صاحب الديوان بحلب ، نسخة من شعر أبى عبادة الوليد البحترى ، فأعاده اليه بعد أن راجعه ونقده ، ودون ما فيه من غلط ، فى كتاب سماه (عبث الوليد) .

وكتاب (شرف السيف) عمله لأمير الجيوش أنوشتكين والى دمشق وحلب .

وأنفذ اليه « مصطنع الدولة ، أبو غالب كليب بن على » ديوان الحماسة مع شرح أبى رياش لها ، وسأله أن يخرج فى حواشيها مالم يفسره أبو رياش ، فأجابه أبو العلاء ، بكتاب مفرد سماه (الرياشى المصطنعى) .

هذا الى جانب ما ألفه للأصدقاء ، وذوى الحاجة ، ممن سألوه أن يزودهم ببعض مؤلفات فى موضوعات يحتاجون اليها ، ومن ذلك :

(سيف الخطبة) وفيه نماذج لخطب الجمع والعيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وعقد النكاح ، على حروف المعجم . سأله فيه أحد المشتغلين بالدين .

و (ضوء السقط) وهو شرح لديوانه سقط الزند ، وضعه لتلميذه أبى عبد الله محمد الأصبهانى .

(والظل الطاهرى) فى النحو ، عمله لأبى طاهر المسلم ابن على ، من أفاضل الحلبيين .

و (المختصر الفتحى) و (عون الجمل) عملهما لولد كاتبه ، أبى الفتح محمد بن الشيخ أبى الحسن على .

و (شرح خطبة أدب الكاتب) عمله لأبي الرضى سالم ابن الحسن الحلبي ، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء .

ولم نذكر الحشد الكاثر من الزائرين ، ومن الأصدقاء الذين تبودلت بينهم وبينه الرسائل الاخوانية أو اللغوية والأدبية .

* * *

لكنه مع كل هذا الاتصال بالناس ، لزم مسكنه لم يبرحه الى أن مات سنة ٤٤٩ هـ ، وقد حاول الحاكم بأمر الله الفاطمى أن يحمله الى القاهرة ، مع من جلب اليها من علماء العصر ؛ لما بلغه من واسع علمه . وفى خبر نقله السيوطى فى (بغية الوعاة) أن نصر بن صدقة القابسى النحوى توجه الى المعرة فلازم أبا العلاء وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة . فلما عاد الى مصر قدمه الى « الحاكم » فأعجبه نظمه وقرر أن يستدعيه من المعرة .

وذكر ابن العديم فى (الانصاف) أن « الحاكم » أمر وزيره « على بن جعفر بن فلاح » أن يكتب الى عزيز الدولة أبى شجاع فاتك ، والى حلب وأعمالها ، بحمل هذا العالم الى مصر ليبنى له بها دار علم يكون متقدما فيها ، على أن يسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته . فلما تلقى عزيز الدولة كتاب الوزير نهض من فوره وسار الى معرة النعمان واجتمع بأبى العلاء وقرأ عليه الكتاب ، فاستمهله ريثما أملى الى الوزير الفلاحى رسالة مطولة — تجدها فى مجموع رسائله — يستعفيه بها من كل ما عرض ، وينفى ما اشتهر به من علم ، ويعتذر بعجزه وقصوره

عن عدم اجابة الطلب على ما به من شوق الى الحضرة ، ومجالسة من فى دار العلم بمصر من السادات الكبراء . وننقل هنا من رسالته :

« .. ما اعتزلت حتى جددت وهزلت ، فوجدتنى لا أصلح لجد ولا هزل ، فعندها رضيت بالأزل .

« ما حمامة ذات طوق يضرب بها المثل فى الشوق ، كانت فى وكر مصون بين الشجر والغصون ، تألف من أبناء جنسها ريدا فيتراسلان تغريدا ، مسكنها نعمان الأراك ، تأمن به غوائل الأشراك ، وتمر فى بكرتها بالبيت الحرام لا تفرق لمكان صائد ولا رام ، فغرها القدر اذ لم ينفع الحذر ، فخرجت من الأرض المحرمة فأصبحت وهى جدّ مغرمة ، صادها وليد فى الحل ، ما حفظ لها من الّ ، فأودعها سجنا للطير ومنعها من كل مير .. بأشوق الى المعيشة النضرة منى الى تلك الحضرة . ولكن صنع الزمان ما هو صانع ، واعترض دون الخير مانع .. المورد نمير أزرق ، ولكن المدنف بالشراب يشرق :

لما رأى لُبَدُ النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل

انهض لبد ، هيهات ! صدّك الأبد .

« وان العامة عهدتنى فى صدر العمر أستصحب شيئا من أساطير الأولين فقالت : عالم ، والناطق بذلك هو الظالم ، ورأتنى مضطرا الى القناعة فقالت : زاهد ، وأنا فى طلب الدنيا جاهد . وزاد تقوّل القوم علىّ حتى خشيت أن أكون أحد الجهال الذين ورد فيهم الحديث المأثور : « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بموت العلماء ، حتى اذا

لم يبق عالم ، اتخذ الناس رءوسا جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

« .. وكيف يتأدى العلم الىّ وأنا رجل ضرير ، وكفى من شر سماعه ، ونشأت فى بلد لا عالم فيه .. ولم أكن صاحب ثروة ، فكيف الحداء بغير بعير ، والانباض مع فقد التوتير ؛ فان بلغ سيدى الشيخ أن سارى الليل قبض على سهيل ، وأن الأرض أنبتت وشيا وحريرا ، والسحاب أمطر مداما وعبيرا ، فهو أعلم بردّه على المبطلين .....

« لهفى على فوات هذه المنزلة ! .. من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء !

لقد أسمعتَ لو ناديت حيّـا ولكن لا حياة لمن تنـادى

« هل آمل من الله ثوابا ، وانما أنا كقتلى بدر أسمع ولا أملك جوابا . ولمثل هـذه الرتبة سهر من أهل العلم الساهرون .. « يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

« وعزيز الدولة يعين الكسير بالجبر ، فكيف يأمر باخراج ميت من قبر ! .. » .

* * *

لنا أن نقول اذن : ان عزلة أبى العلاء وان لم تسلم له على النحو الذى أراد ، الا أنه التزم بها من ناحيته ، فلم يبرح منزله حتى مات ، وكان الناس هم الذين اقتحموا عليه هذه العزلة ؛ فشغلوه وشغلوا به ..

على كره منه ..

وكان أحيانا يضيق بزائريه ، وينكر أن يكون لديه مأرب لقاصد ، أو منتجع لرائد :

يزورنى القــوم ، هذا أرضه يمن
من البلاد وهـــذا داره الطبس
قالوا سمعنا حديثا عنــك قلت لهم
لا يبعد الله الا معشرا لبِســـوا
يبغون منى مبنى لست أحســـــنه
فان صـــدقتُ عرتْهم أوجه عبس
ماذا تريدون ؟ لا مـــال" تيسر لى
فيُســـتماح ولا عـــلم فيقتبس
أنا الشقى بأنى لا أطيق لـــــكم
معـــونة وصروف الدهــر تحتبس

وطالما اشتهى الوحدة التامة ، ورأى فيها الراحة العظمى المتاحة لمثله فى الدنيا ، والطهارة من دنس العصر ولؤم أهله :

هــذا زمان ليس فى أهـــله   الا لأن تهجـــره أهـــلُ
حان رحيــل النفس عن عالم   ما هو الا الغدر والجهـــل

*

فى الوحدة الراحة العظمى فأحْى بها
قلبا ، وفى الكون بين الناس اثقال

*

طهارة نفسى فى التبـــاعد عنـــكم
وقربكم يجنى همـــومى وادناسى

*

من لى بأنى وحيـــد لا يصاحبنى
حىّ ســوى الله ، لا جن ولا انس
سلكت طرق المعـــالى ثم قلت لهم
سيروا ورائى ، فلما شارفوا خنسوا

*

بنو الوقت ان غرّوك منهم بحكمة
فما خلفها الا غـــرائز جهّـــال
لذاك سجنتُ النفس حتى أرحتهـا
من الانس ما أخـــلاه ربع باخلال
اذا ما حللت الجدب فـــردا بلا أذى
فسقيا له من روضـــة غير محلال

*

وما فى الأرض من شرب كـــريم
يسر بورده الصـــادى العيوف

وما باختياره كان يلقى زوّاره ..

ولا باختياره كذلك كانت عزلته عن الناس ، وانما حـمله عليها عجزه عن احتمال نكر العصر وفساد المجتمع ، وانه ليقول مع ذلك ، فى اجتماعية الانسان كلمات جرت مجرى الأمثال :

الناس للنـــاس من بدو وحاضرة
بعض لبعض ، وان لم يشعروا خدم

* * *

ولو أنى حـُبيت الخلد فـــردا لما أحببت بالخلد انفـــرادا
فلا هطلت عـــلىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البـــلادا

صائم الدهر

ووجدت نفس الحر تجعل كفه صفرا ، وتلزمه بما لا يلزم

(اللزوميات)

فماذا عن قراره الخاص بالتزهد والحرمان من كل متع الدنيا ولذاتها ؟

كان أمرها فيما يبدو هينا عليه ، حيث استطاع أن يبقى على الحرمان ما عاش ، فبقى الى آخر عمره لم يتزوج ، وأمضى نحو نصف قرن من الزمان « طعامه البقل ، ولباسه خشن القطن ؛ وفراشه سجادته : من لباد فى الشتاء ، وحصير البردى فى الصيف » .

أجمع على ذلك مؤرخوه بلا استثناء ، وشهدت به آثاره التى أملاها بعد عزلته .

وكان له ايراد يسير يأتيه من وقف له مقداره بضعة وعشرون دينارا فى السنة ، يدفعه نصفه أجرا لخادم ووراق ، ويقيم أوده بالنصف الباقى . فاذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء بضرورات العيش ، تخلى عما يطيق الاستغناء عنه منها ، وأبى أن يلتمس زيادة فى رزقه من أى سبيل .. أو كما قال فى احدى رسائله الى داعى الدعاة :

« ولست أريد فى رزقى زيادة ، ولا أوثر لسقمى عيادة » .

وكما رفض وهو ببغداد ، قبول ما عرضه عليه البغداديون من أموالهم عرض الجد ، أبى بعد عزلته أن يقبل عطاء من أى مخلوق .

وقد مرّ بك فى حديث عزلته ، ما ذكره مؤرخوه من أن الحاكم العلوى بمصر ، أراد أن يحمله اليها لما سمع من علمه ، على أن يسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته ، فأبى واعتذر .

ويذكرون أيضا فى تاريخه ، أن المستنصر بالله الفاطمى صاحب مصر — ٤٢٧ هـ — « بذل له ما ببيت المال فى معرة النعمان فلم يقبل منه شيئا » .

وأبى أن يرجع عما ألزم به نفسه من الامتناع عن أكل اللحم واللبن والبيض وايذاء الحيوان ، وأصر على الاكتفاء بما تنبت الأرض من بقل وفاكهة ، بالرغم من انكار مجتمع عصره لهذا المسلك ، واتخاذه مطعنا لتجريحه واتهامه .

وتشهد الرسائل التى تبودلت بينه وبين « داعى الدعاة : أبى نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران العلوى » على ما أجهد أبا العلاء من عنف الخصومة على موقفه ، وعنت المجادلة فيه ؛ وعلى ما تكلف من مشقة وعناء لكى يبرر مسلكه .

وكان أبو العلاء قد قال قصيدته اللزومية :

غدوتَ مريض العقل والدين فالقنى
لتسمع أنبـــــاء الأمور الصحائح

فلا تأكلنْ ما أخــــرج الماء ظالمـــا
ولا تبغ قوتا من غريض الذبائــح

ولا تفجعن الطـــــير وهى غوافل
بما وضعت ، فالظلم شر القبــائح
ودع ضرَب النحل الذى بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائـــح
فما أحرزته كى يكون لغـــــيرها
ولا جمعته للنـــدى والمنـــائح
مسحتُ يدى من كل هــذا فليتنى
أبهت لشــأنى قبل شيب المســائح

فكتب اليه داعى الدعاة ، أنه ذلك المريض ، وقد جاء يلتمس لديه البرء والشفاء .

وكان أول سؤاله : عن العلة فى تحريمه على نفسه أكل اللحم واللبن ، سؤال من يعرف « أن القوة الانسانية مستولية عــلى الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليه بالنطق . فهى مسخرة له على أنواع من التسخير ولولا ذلك لكان موضوع الحيوان باطلا . فتجافى الشيخ — وفقه الله — عن الانتفاع بما هو موضوع له مخلوق لأجله ، ابطال لتركيب الخلقة . ثم امتناعه من أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين : اما أنه تأخذه رأفة بها فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغى أن يكون أرأف بها من خالقها . فاذا ادعى أن تحليلها وتحريمها انما كان من بعض البشر ، يعنى به أصحاب الشرائع ، وأن الله لم يبح اراقة دم حيوان وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله ؛ وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله سبحانه

على صيغة لا تصلح الا لنتش اللحوم وفسخها وتمزيق الحيوانات وأكلها . واذا كان هذا الشكل قائم العين فى الفطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر فى أكل اللحوم ، وكان من أحل لهم ذلك محقا . والثانى : أنه يرى سفك دماء الحيوان خارجا عن أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على خالقه الذى أوجده ! » .

هكذا خرجت القضية من زهد زاهد ، وتأملات شاعر ، الى مجادلة فى نظام الكون وترتيب الكائنات وحكمة الخالق !

وأجاب أبو العلاء :

« .. وقد علم الله أن سمعى ثقيل وبصرى عن الابصار نقيل . قضى علىّ وأنا ابن أربع لا أفرق بين البازل والربع . ثم توالت محنى فأشبه شخصى العود المنحنى .. وأما ما ذكره السيد الرئيس الأجل ، المؤيد فى الدين ، فالعبد الضعيف العاجز يذكر له مما عاناه طرفا ، فأقول : ان الله جلت عظمته حكم علىّ بالازهاد ، فطفقت من العدم فى جهاد . وأما قول العبد الضعيف العاجز :

* غدوت مريض العقل والدين فالقنى *

فانما خاطب به من هو فى غمرة الجهل ، لا من هو للرياسة علم وأصل . وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم .. ولم يزل من ينسب الى الدين يرغب فى هجران اللحوم لأنها لم يوصل اليها الا بايلام الحيوان .. وقد تردد فى كلام العرب ما يلحق الوحشية من الوجد ، والناقة اذا فقدت الفصيل ، فقال قائلهم :

فما وجدت كوجدى أم سقب   أضـلّته فرجعت الحنينـا »

وعرض لاختلاف العلماء فى الشر والخير « وهذه عقدة قد اجتهد المتكلمون فى حلها فأعوزهم » . ثم قال :

« فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأقوال ، وبلغ ثلاثين عاما ، سأل ربه انعاما . ورزقه صوم الدهر فلم يفطر فى السنة ولا الشهر الا العيدين . وصبر على توالى الجديدين . وظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية ..

« ومما حثنى على ترك أكل الحيوان » أن الذى لى فى السنة نيف وعشرون دينارا ، فاذا أخذ خادمى بعض ما يجب بقى لى ما لا يعجب ، فاقتصرت على فول وبلسن » وما لا يعذب عـلى الألسن .. ولست أريد فى رزقى زيادة ، ولا لسقمى عيـادة » والسلام » .

وطالت بينهما المجادلة ، وأراد داعى الدعاة أن يبطل حجته فكتب اليه :

« وقد كاتبت مولاى تاج الأمراء — يعنى ثمال بن صالح — أن يتقدم بازالة العلة فيما هو بلغه مثله من ألذ الطعام » ومراعاته به على الادرار والدوام ليكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجرى فى أمر معيشته على أحسن ما يكون من الصورة » .

وردّ أبو العلاء :

« .. وأما ما ذكره من المكاتبة فى توسيع الرزق على .. فالعبد الضعيف العاجز ما له رغبة فى التوسع ومعاودة الأطعمة ، وتركها

صار له عادة وطبعا ، وانه ما أكل شيئا من حيوان ، خمسا وأربعين سنة :

والشيخ لا يترك عــاداته حتى يوارى فى ثرى رمسه »

وقد كان أبو العلاء ، حين أُجهِد بهذه الخصومة ، شيخا فى نحو الخامسة والثمانين من عمره !

ولم يقبل الداعى اعتذاره بالعادة والطبع ، بل ألح فى مجادلته ، وقد حاول أبو العلاء ، أن يرد القضية الى وضعها البسيط ، من حيث هى مبالغة فى الزهد والتعفف ، محتجا بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والأئمة من الصالحين ، من القناعة بالقليل ، وايثار أهل الحاجة بما يفضل منهم :

« وقد عدل سيدنا الرئيس الى الايماء بأن من ترك أكل اللحم ذميم . ولو أخذ بهذا المذهب ، لوجب على الانسان ألا يصلى صلاة الا ما افترض عليه ، لأن ما زاد على ذلك أداه الى كلفة ، والله تبارك وتعالى لا يريد ذلك ، ولوجب أن الذى له مال كثير ، اذا أخرج عن الذهب ربع العشر ، لا يحسن أن يزيد على ذلك : وقد حَثَّ الناس على النفقات فى غير موضع من الكتاب الأشرف » .

واذا كان الداعى قد أفلح بتمارضه فى جرّ أبى العلاء الى المناظرة ، وضيق عليه الخناق بجدله الماكر ، فقد أعياه أن يقنع طبيبه بالرجوع عن رأيه ومسلكه ، بل أصر عليه ما عاش ، وأعلن

عن هذا الاصرار بقوله فى رسالته الرابعة الى ابن أبى عمران ، انه « قد رضى أن يلقى الله جلت قدرته ، وهو لا يطالب الا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فان وصل الى هذه الرتبة فقد سعد » .

أجل ...

يلقى الله بهذا ، ولا يلقاه بما أوغل الناس فيه من شر واثم وظلم وبغى ، وما اقترفوا من كبائر وفواحش ، وان أصناف الحيوان — فيما قال : « لأولى بالرأفة ، وهى لم تشرب من الاثم بذنوب ، ولم تجن ما يكتسب من الذنوب » .

* * *

ولقد جادله آخرون فى هذا المسلك ، فأمسك عن المجادلة يأسا من اقناعهم ، لكنه لم يتزحزح عن موقفه ، ولم يرجع عن قراره .

وفى الخبر أنه مرض فجاءوه بطبيب وصف له لحم فرّوج غذاء . وأتوه به فلمسه وقال :

« استضعفوك فوصفوك . هلاّ وصفوا شبل الأسد ! » .

وأبى أن يذوقه ..

أنا صائم طول الحياة وانما

فطرى الحِمام ، ويومذاك أُعيِّدُ

السر المذاع

وقال الفارسون : حليف زهد
وأخطأت الظنون بما فرسنه
ورُضت صعاب آمالى فكانت
خيولا فى مراتعها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات الا
لأن خيارها عنى خنَسنه
(اللزوميات)

لمدى يقرب من نصف قرن ، أخذ أبو العلاء نفسه بأقسى ضروب الزهد ، وراضها على احتمال ما فرض عليها من حرمان صارم . فهل كان ذلك عليه هينا ؟

كلا ! بل انه كان يخوض مع بشريته معركة بالغة العنف والقسوة ، والذى لا ريب فيه عندنا أنه بذل فى هذه المعركة ما يجاوز طاقة البشر ، لكنه ظل ، الى آخر العمر ، عاجزا عن أن يقهر فى نفسه حب الدنيا ، أو يرتاح بالسلو عنها !

وقد يبدو هذا القول غريبا ، مع ما شاع فينا وذاع ، من أن الرجل انتصر على الدنيا منذ قرر الانسحاب منها ، ووطئها بقدميه بعد أن انصرفت نفسه عنها .

ولسنا بحيث ننكر أن أبا العلاء لم يكف عن ذم الدنيا ولعنتها ، ولكنه كذلك لم يكف عن الشكوى مما رسخ فى نفسه من حبها ، والأنين مما ظل يكابد من أشواق بشريته المكبوتة ، وحاجاته الغريزية المقهورة !

وهو حين انسحب منها اثر عودته من بغداد ، لم يكن يبغى أكثر من الظفر براحة اليأس منها ، بعد أن عزّت عليه راحة الأمل فيهـا !

ولم يطأها بقدميه كما زعموا .

وانما اتجهت محاولته الى قهر ما فى فطرته من شغف بالدنيا ، بهذه الرياضة القاسية الصارمة .

ولسنا نقول فى هذا برأى لنا ، وانما الكلمة فيه لأبى العلاء ، وقد قالها بصدق مثير وصراحة مؤثرة ، فيما ترك لنا من آثاره فى الشطر الثانى من حياته ، وظل يقولها الى أن استراح بالموت من عذاب المكابدة .

وهنا نطيل الوقوف ، لنصغى اليه وحده . لعل صوته ينفذ الى أعماق وجداننا فينسخ بصدقه ما رسخ فى هذه الأعماق من أقاويل عنه ، ويهدينا الى عالمه النفسى ، حيث نراه على حقيقته ، مجردا من الظلال التى مسخته !

ولنبدأ بالفصول والغايات ، التى بدأ يمليها اثر انسحابه من بغداد الى محبسه بالمعرة ، وفيها جؤار من حرقة الظمأ ، ولهفة على راحة اليأس :

« انما أنا رجل بُلِىَ بالصدى ، لا يجد أبدا موردا ، فهو

ظمآن أبدا ! ان ورد غروفا — البئر يغرف ماؤها فى يسر — وجده مضفوفا ، وان صادف نزوعا ؛ أعوزته الآلة والمعين .. » .

« أيتها الدنيا البالية ؛ ما أحسن ما حلتك الحالية ! والنفس عنك غير سالية .. » .

« بى طب — داء — فأين أستطب ، وأنا تحت حب الدنيا محب — رازح — أثقلنى فأنا مكب » .

« زويت عنى الدنيا فأسفت ، وأشفقت لذلك وخفت ، وأحببت لها وشنفت . ولو أنصفت لعِفت ما أستوبله — أجده وبيلا — فما نثفت » .

« رضيت بالحضض على مضض .. » .

« لا أكتمك — مولاى — ما أنت به عليم ، ان أسفى على الدنيا طويل ..

« أحب الدنيا كأنها تحبنى ، والغريزة عن الرشد تذبنى .. » .

« أحب الدنيا وآلتها ليست فىّ ! وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فالام التشوف والضلال ؟ » .

وقال فى اللزوميات :

وصــــدقت هذا العيش فى حبى له
واغترنى بخـــــداعه وكـــــذابه

عذب يعـــذبنى البقـــــاء وللردى
يـــوم يخلص من فنـــون عـــذابه

*

نحـن البرية أمسى كلنا دنفــا
بحـب دنياه حبا فوق ما يجـب

*

وكلكم يبـــدى لـدنياه بغضــة
عـلى أنه يخـفى بهـا كمد الصب

*

لو أن عشقك للـدنيا له شـبح
أبديته ، لمـلأت السـهل والجبلا

*

شقينا بدنيانا عـلى طـول ودها
فدونك مارسـها حبـاتك واشقها
ولا تبدينّ الزهــــد فيها فكلنا
شهيد بأن القلب يضمر عشـــقها

*

أيها الدنيا لحاك اللـ   ه من ربـــــة دل
ما تسلى خلدى عنـــ   ك وان ظن التســـلى

*

أشربت حبّك لا ينفيه عن جسدى
ســوى ثرى لدماء الانس شراب

*

صحبت عيشا أعانيــــه ويغلبنى
مثل الوليد يقود المصعب السـدما

قد مللت زمانا شرّه لهـــــب
اذا دنا لخبـــو ، عاد فاحتــدما

*

تنازعنى الى الشـــــهوات نفسى
فلا أنـــا منجـــح أبدا ولا هى

*

أقمت برغمى ، وما طائـــــرى
براض اذا ألفتــــه الوكـــون
ولى أمـــل كأتمّ القنـــــا
وحـــال كأقصر ســـــهم يكون

*

ولى أمل قد شبت وهو مضـــاجعى
وساودنى قبــل الســواد وما همّا

*

الهَ الأنام ورب الغمـــــام
لنـــا الفقــــر دونك وألملك لك
اذا أنا لم أغن فى لــــــــذة
أسفت وضـــاق علىّ الفــلك

*

لأمـــواه الشبيبة كيف غضـــنه
وروضات الصـــبا كاليبس اضنه

وآمال النفوس معللات
ولكن الحوادث ينتقضنه
فلا الأيام تفرغ من أذاة
ولا المهجات من عيش غرضنه

*

أما وفؤاد بالغرام قريح
ودمع بأنواع الهموم سريح
لقد غرّت الدنيا بينها بمذقها
وان سمحوا من ودّها بصريح
أليلى » وكلٌّ اصبح ابن ملوّح
ولبنى » وما فينا سوى ابن ذريح
وليس لنا فى مدة العيش راحة
فكيف بموت من أذاكِ مريح
وتعقد سلوان الفتى عنك نفسه
بأذيال برق أو ذوائب ريح

*

بَلِيَ الحبل والغزالة فوق الأر
ض لم يبل خيطها المغزول
وأنا العَوْد ، قلبه أضمر الشو
ق ولكن ظهره مجزول

*

ودنياك التى عُشِقت وأشقت
كذاك العشق ، معروفا » شقاء

سـألناها البقـــاء على أذاهـــا
فقالت : عنـكم حظر البقـــاء

بعاد واقع فمتى التـــــدانى
وبين شـاســع فمتى اللقـــاء

*

أبى القـــلب الا أمّ دفر كما أبى
سوى أم عمرو ، موجع القلب هائم

هى المنتهى والمشتهى ، ومع السـها
أمانىّ منها دونهن العظـــــائم

*

أطارق همّ ضاف ، هل أنت عـاذر
متى لم تجد لى عنـد مرتحل طرقا

وأعوزنى ماء أزيل به الصـــدى
فلا عيش ان لم أشرب الكدر الطرقا

وحبىَ للدنيـا كحبـكَ خالصـا
وفى عنقينا من هـوى جعلتْ ربقا

*

لبثتُ حــول المـاء من ظمـــأ
ان غربى مـــا لـــه مرس

مهجتى ضـــــد يحـــاربنى
أنا منى ، كيف أحـــــترس !

*

نفسى بها ونفوس القـــوم ملهجة
ونحن نخبر أنا لا نبـــــاليها
أمرتنى بسـلوٍ عن خوادعهـــا
فانظر ، هل انت مع السالين ساليها
ولا ترى الدهر الا من يهيم بهـــا
طبعا ، ولكن باللفظ قاليهــــــا

قد يقال انه كابد هذا الشغف بالدنيا ، فى مستهل عهده بالعزلة ، ثم برىء منه على تطاول الزمن . ولكن من أبيات اللزوم ما يشهد بأنه ظل يلوب حول الماء من ظمأ ، ويشكو وطأة الحرمان ، الى عهد المشيب الذى تأخر . وهو وان أحس الشيخوخة نفسيا فى عز رجولته ، قبل انسحابه من بغداد ، الا أن شيبه تأخر طويلا عن أوانه المعهود ، بدليل قوله فى اللزوم :

أيا مفرقى هلا بيضضتَ على المدى
فما سرنى أن بتَّ أســـود حالكا
قبيح بفود الشـــيخ تشـــبيهُ لونه
بفود الفتى ، والله يعـلم ذلـــكا

وقوله :

تأخر الشيب منى مثــــــل مقدمه
على سواى ، ووقت الشيب قد حضرا
وما ينفع الغــربيب والضعف واقع
اذا كان لون الرأس غـــير هجان

ولدينا مع ذلك ، نصوص من اللزوميات ، يتحسر فيها على الحرمان ، بعد أن جاوز الخمسين من عمره :

أسير عن الدنيـــــا وما أنا ذاكر
لها بســـــلام ان أحداثهـــا حمس

صرورة ما حالين : ما لكعابهـــــا
ولا الركن ، تقبيل" لدى" ولا لمس

ولم أرث النصف´ الفتـــاة´ ولم ترث
بى الربع ، بل ربع تطاول أو خمس

لعمرى لقد جاوزت خمســـين حجة
وحسبى عشر فى الشدائد أو خمس

وأجهـــر حينا ، ثم أهمس تـــــارة
وسيان عند الواحد الجهر والهمس

وفى الخمسين شكا ظمأه وجدب حياته :

علقت بحبل العيش خمســـين حجة
فقد رث" حتى كاد ينصرم الحبـــل

وهل ينفـــع الطل الذى هـــو نازل
بذات رمـــال عندما جحـــد الوبل

وقال فى شيخوخته ، وهو يدنو من النهاية :

تباركت يا رب" العـــلا أنت صغتها
فليتك فى أرزائها لم تبـــــارك

أعانقها عنــــــــد الوداع تشبثا
وكيف وداع بين قال وفـــــارك

ولدينا أيضا ، أثر لأبى العلاء من مرحلة الشيخوخة ، أعنى (رسالة الغفران) التى أملاها حوالى سـنة ٤٢٤ هـ وهو فى الستين من عمره ، بعد أن أمضى نحو ربع قرن فى مجاهدته. والرسالة معبرة عن أمانيه الموءودة ، مشحونة بأصداء أشواقه المكبوتة ، وصليل القيود التى كبلت نفسه بالحرمان الباهظ ، وقد أطلق لهـا العنان فى رؤيا عجيبة من رؤى يقظته وهذيان أمانيه ، فصورت لنا عالمه الآخر كما تمثله وكما اقترحه عليـه حرمانه .

فالمقيد الذى لم يغادر محبسه منذ عـاد من بغداد الى أن مات ، والذى ألجم عواطفه الهادرة وكبت انفعالاته الجياشة ، جاءت جنته حافلة بالحركة بريئة من الهدوء والسكون .

فيها رحلات صيد ، وزيارة ونزهة ، وقد تعنف الحـركة فتصير عراكا ومنافرة وعربدة ، ويعلو الصوت فيصير صياحا وجعجعة. على أن هذه الحركة الحسية لا تقاس بالحركة النفسية العنيفة التى تموج بها جنة الغفران وتضطرب بها نفوس الموعودين بها ، فهم لا يبرءون من تعجب وحنين وتشوف وانتظار ، ومن خوف وحذر واشفاق وخيبة ، ومن اغراء وعتاب ، ومخاصمة ولمز وتعبير وتنابز بالألقاب . ويبلغ الانفعال ببعضهم أقصاه فيخرجهم عن طورهم ، وتراهم يتضاربون ويتلاحون ويتشاتمون ويشتمون ..

وصائم الدهر الذى حرم على نفسه لذات الدنيا ، ملأ جنته بالخمر والنساء ، وتفنن فى حشد صنوف من اللذائذ الحسية ، والشهوات المصورة : فأطباق اللحوم تقدم فى وليمة بالجنة على

ما يشتهى المدعوون اليها من الأدباء ، وأصناف الشراب تأتيهم كما يقترحون ، والحور العين يتشكلن على الصورة التى ترضيهم أو تخطر فى بالهم :يلتقى « ابن القارح » باثنتين من أجمل نساء الجنة ، ثم يزهده فيهما أنهما كانتا من نساء الدنيا ! ويشتهى أن ينعم بالحور العين ممن قال فيهن الله تعالى : « حور مقصورات فى الخيام . لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » فيمضى به الملَك الى شجر الحور ، فيكسر ثمرة فتخرج منها حورية باهرة الحسن ، فيسجد اعظاما لله القدير ، ويخطر له وهو ساجد أن هذه الحورية ، على حسنها ، ضاوية نحيلة ، فيرفع رأسه وقد صار من ورائها ردف ضخم يهوله ، فيسأل الله تعالى أن يقصر عودها على قدر معين ، فيقال له : « أنت مخير فى تكوين هذه الجارية كما تشاء » .

ومشاهد اللذة فى جنة المحروم ، تعرض مشخَّصة ممثلة : يسأل ابن القارح حوريته أن تتبعه بين كثبان العنبر وأنقاء المسك ، فيتخلل بها هضاب الفردوس ورمال الجنان ، فتقول : أيها العبد المرحوم ، أظنك تحتذى بى فعال الكندى ، امرىء القيس ، فى قوله :

فقمت بها أمشى تجر وراءنا
على اثرنا أذيال مرط مرحل
(الأبيات)

« ويعرض له حديث امرىء القيس فى دارة جلجل ، فينشىء الله جلت عظمته حورا عينا يتماقلن فى نهر من أنهار الجنة ، وفيهن

من تفضلهن كصاحبة امرىء القيس . ويعقر لهن الراحلة ، فيأكل ويأكلن من بضيعها ما ليس تقع الصفة عليه من امتاع ولذاذة . »

ويلتقى ابن القارح وعدى بن زيد ، وقد خرجا فى رحلة صيد ، بأبى ذؤيب الهذلى ، وبين يديه ناقة عائذ مطفل ، يحتلب لبنها فى اناء من ذهب فيسألان متعجبين : « أتحتلب مع أنهار من لبن ؟ كان ذلك من الغبن » فيقول : « لا بأس ، انما خطر لى ذلك مثلما خطر لكما القنص ، وانى ذكرت قولى فى الدهر الأول :

وان حديثا منــــك ، لو تعلمينه
جنى النحل فى ألبــان عوذ مطافل
مطافيلَ أبكار حديث تناجُهـــا
يشاب بماء مثل مـاء المفاصـــل

فقيض الله بقدرته لى هذه الناقة عائذا مطفلا ، وكان بالنعم متكفلا ، فقمت أحتلب على العادة ، وأريد أن أشــوب ذلك بضرب نحل .. فاذا امتلأ اناؤه من الرسل — اللبن — كون البارى جلت عظمته خلية من الجوهر ، رتع ثولها — نحلها — فى الزهر ، فاجتنى أبو ذؤيب ، ومزج حليبه بلا ريب ؛ فيقول : ألا تشربان ؟ فيجرعان من ذلك المحلب جرعا ، لو فرقت على أهل سقر لفازوا بالخلد شرعا » .

ويشرب ابن القارح من خمر الجنة التى وعـد بها المتقون « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » فيذكر ما كان يلحق شــارب الخمر فى الدنيا من نشوة وفتور ، « فيختار أن يعرض له ذلك من

غير أن ينزف له لب .. فاذا هو يخال فى العظام الناعمة دبيب نمل ، أسرى فى المقمرة على رمل ، فيترنم بقول اياس بن الأرت :

أعاذل لو شربت الخمـــــر حتى
يظل لكل أنمـــــلة دبيـــب
اذن لعـــــــذرتنى وعلمت أنى
لما أنفقتُ من مــــالى مصيب »

والموعودون بالجنة ، كما تمثلها أبو العلاء ، لا يحتاج أحدهم الى أن يعبر عما يشتهى فيكون له ما اشتهى وأراد ، بل يكفى أن تخطر له الخـاطرة أو يهجس فيه الشوق ، ليجد ما يشتهى محققا « فعزّ الهنا القـديم الذى لا يعجزه تصوير الأمانى ، وتكوين الهواجس من الظنون ! » .

وأبو العلاء الضرير ، الذى سُمع فى صباه يحمد الله عـلى العمى كما يحمده غيره عـلى البصر ، والذى تصـورناه فى شيخوخته قد ألف محنته واعتادها ، وتكلف الصبر عليها والرضى بها ، هو الذى يتمثل جنته ، وليس فيها من امتحن بعاهة فى الدنيا الا رفعت عنه . بل انه لا يكتفى بأن يرتد الأعمى بصـيرا ، والأعشى أحور ، والهرم شابا ، والسوداء بيضاء ، والبخراء طيبة النكهة ، وانما يلتمس تعويض كل منهم ، تعويضا لا يقترح مثله سوى المبتلى المحروم : فأحدّ أهل الجنة بصرا ، هم الذين حُرموا نعمة الابصار فى الدنيا . وأجملهم عيونا ، عُوران قيس ، وأطيب نسائها نشرا وأذكاهن رائحة فم ، امرأة كانت تدعى فى الدنيا

« حمدونة الحلبية » وقد طلّقها زوجها بائع السقط « لأنه كره رائحة فمها . وأنصعهن بياضا ، جارية كانت تدعى « توفيق السوداء » وتخدم فى دار العلم ببغداد ! والأعشى يبدو فى جنة أبى العلاء « وقد صار عشاه حورا معروفا وانحناء ظهره قواما موصوفا » .

وتلك هى جنة الضرير المحروم الحبيس ..

فاذا لم تكف فى الكشف لنا عن عالمه النفسى الذى غيبه عنا رواج أقواله فى مقت الدنيا ولعنتها ، فلنضف اليها أن أبا العلاء لم ينفض همومه وأشـــواقه وينفس عن كبته وحرمانه « بهذا الأسلوب الخيالى فحسب ، بل جهر كذلك بكل ما كان يئوده من ذلك ، وأذاع سره المطوى ، دون احتيال عليه بابن القارح الذى متّعه بفردوسه المتخيل ، ودون مداراة بأسلوب الرمز وشطحات الأوهام وهواجس الرؤى .

تحسر على امتناع الدنيا عليه ، وحرمانه من البنين وهم زينة الحياة « وان حاول التسلى بأنه انما رفض الولد ، ليجنبه محنة الوجود ، وليجنب نفسه الفجيعة فى الولد بعقوق أو شكل :

اذا لم يكن خـــلفى كبير يضيعه
حِمامى ، ولا طفل ، ففيم حياتى ؟
وما العيش الا عــلة برؤها الردى
فخلى ســـبيلى أنصرف لطيــاتى

*

ألا تفكرت قبـــل النسل فى زمن
به حللت ، فتـــدرى أين تلقيه ؟

*

لو ان بنىّ أفضـــل أهــل عصرى
لما آثرت أن أحظى بنســـــل
فكيف وقد علمت بأن مثـــلى
خسيس لا يجىء بغير فســـــل

*

ومن رُزِق البنين فغـــير نــاء
بذلك عن نوائب مســـقمات
فمن ثكل يهاب ومن عقـــوق
وأرزاء يجئن مصـــــممات
وان تُعنطَ الانـــاث فأى بؤس
تبين فى وجـــوه مقسمات
ودفن والحوادث فاجعـــات
لاحداهن احــــدى المكرمـات

*

أرى ولـــد الفتى عبئـــا عليه
لقــد ســعد الذى أضحى عقيما
فاما أن يربيـــه عــــدوا
واما آن يخلفه يتيمـــــا

واما أن يصـــادفه حمـــام

فيبقى حــــــزنه أبدا مقيما

وصاح بالدنيا ، من أعماق وجدانه الجريح المحترق بنار الظلام :

وأصبحت فى الدنيــا غبينا مرزءا

فأعفيت نسلى من أذاة ومن غبن

فان تحكمى بالجــور فىَّ وفى أبى

فلن تحكميه فى بناتى ولا فى ابنى

وأوقدتِ لى نار الظلام فلم أجـد

سناك بطرفى ، بل سنانك فى ضبنى

وأذاع سره ، بصراحة مثيرة ، مقرا بأنه ما زهد فى النساء عن طيب خاطر ، ومتحسرا على ما فاته منهن :

واذا الفتى كره الغــوانى واتقى

مرضا يعــود ، وضره ما يطعم

فقد انطوت عنه الحيــاة وكاذب

من قال عنه : يبيت وهو منعم !

*

أوانىَ هــمٌ فألقــى أوانى

وقد مر فى الشرخ والعنفــوان

زوانى خــوف المقــام الذميـ

ـم عن أن أكون خليــل الزوانى

وعنــــدى سر بذىء الحــديـ
ث كَنَنت عنه فى العالمين الغــوانى
اذا رمـــلة لم تجىء بالنبـــات
فقد جهلت أن سقتها الســوانى !

*

انى أوارى خلتى فأريهــــــم
رِيا ، وفى سر الفـــؤاد أوار

*

والمـــرء ليس بزاهـــد فى غادة
لكنه يترقب الامـــــكانا

*

أريد ليان العيش فى دار شـــقوة
وتأبى الليالى غير بخل وليّـــان
ويعجبنى شـــيئان : خفض وصحة
ولكن ريب الدهر غيّر منْ شانى
وما جبــل الريان عنـــدى بطائل
ولا أنا من خـود الحسان بريّان

*

أســير عن الدنيـــا وما أنا ذاكر
لها بسلام ان أحداثهـــا خـمس
ضرورة ما حالين : ما لكعابهـــا
ولا الركن ، تقبيل لدىّ ولا لمس

*

خمور الريق لسن بكل حـــال

عــــلى طلابهن محـــــرمات

ولكن الأوانس باعثـــــــات

ركابك فى مهــــالك مقتمــات

*

أريد الاناخـــــة فى منـــزل

وقد حُديت لســــواه جِمالى

فمن مخبرى : أغريق البحــــا

ر ألقى الردى أم دفين الوصـال

هويت انفــــرادى كيما يخف

عمن أعاشر ثقـــل احتمـــالى

أما لى فيما أرى راحـــــــة

مدى الدهر من هذيان الأمـالى

*

ألم ترنى حميت بنات صـــدرى

فما زوجتهن وقد عنســـــنه

وقال الفارســــون : حليف زهـد

وأخطأت الظنـــون بما فرســنه

ورُضت صـعاب آمــالى فكانت

خيـــولا فى مراتعها شــمسنه

ولم أعرض عن اللــــذات الا

لأن خيــارها عنى خنســـنه !

واذكر ما مرّ بك من قوله فى الفصول والغايات :

« أحب الدنيا وآلتهـا ليست فى ، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فالام التشوف والضلال ؟ » .

« انما أنا رجل بـُلى بالصدى ، لا يجد أبدا موردا .. فهو ظمآن أبدا » .

فاذا سألت : ففيم كانت اذن أقواله فى مقت الدنيا وتفننه فى وصف شرها ولؤمها ، قلنا ان الرجل تمنى — وقد أعوزته آلتها — لو استراح بالصد عنها وسكن الى يأسه من نيلها ، فكان اسرافه فى ذمها نوعا من الالحاح فى المجاهدة وحمل النفس على الزهد فيها ، وأعياه مع ذلك أن يقهر فى فطرته ما رسخ فيها من تعلق بالدنيا وشغف بها واشتهاء للذاتها ، فكان هذا الذى سمعت من لهاث الظمأ ، وحسيس النار المشبوبة فى أعماقه ، والأنين من مرض لا يبرأ وحب لا رجاء فيه ولا راحة منه :

أليلى وكلٌ اصـبح ابن ملوح
ولبنى وما فينا سـوى ابن ذَريح

ولم يطـّرحك المـرء عنه لعبرة
يراها بمرفوت العظـام طريح

وليس لنـا فى مـدة العيش راحة
فكيف بموت من أذاكِ مريـح

وتعقد سلوانَ الفتى عنـك نفسُه
بأذيال برق أو ذوائب ريـح

وما زال فى بلواكِ مــذ يوم وضعه
عليك ، الى أن عـــاد رهن ضريح
طلبتُ شــفاء منكِ واهتجت سائلا
بذاك أبا سلمان وابن بريـــــح

ومن هنا كان عذابه وكانت مجاهدته ..

لم يجد ، مدى الدهر ، راحة من هذيان أمانيه ..

ولا ظفر باليأس من دنيا يحبها وآلتها ليست فيه !

وبلغت به المكابدة أقسى مداها ، ففكر فى الخلاص منهـا بالموت ، وهمّ وهــو فى الستين من عمــره ، بأن يقتل نفسه ليستريح ؛ لولا أنه أشفق من التبعة ، وخاف غوائل السبيل بعد الموت ، فذلك قوله فى (رسالة الغفران) :

« قد كدت ألحق برهط العدم ، من غير الأسف ولا الندم ، ولكنما أخشى قدومى على الجبار .. » .

ولم تكن خاطرة عابرة ، بل فكرة ألحت على وجدانه طويلا ، ونطقت بها آثار له أخريات ، فقال فى اللزوميات :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة
مخشية لاعتراها النـــاس أفواجا
وكان كلٌ من ألقت الدنيا عليه أذى
يؤمهـــا تاركا للعيش أمواجـــا
كأس المنيـــة أولى بى وأروح لى
من أن أعالج اثراء واحواجـــا

وقال فى (الفصول والغايات) محددا طريقته للخلاص من محنة الحياة لو استطاع :

« لو أمنت التبعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضنك الحياة ، ولكنى أرهب غوائل السبيل .. » .

وكم تمنى لو أن أحدا باعه حياته بميتة سهلة ، فيتخلى له عنها غير نادم :

من باعنى بحيـــــــاتى ميتة سرحا
بايعته ، وأهـــــان الله من ندما

لكن أحدا لم يملك أن يعقد معه هذه الصفقة ، كما لم يملك هو لنفسه أن يريحها بالموت ، فلم يبق له الا أن يلوذ بالله ضارعا ، أن يعجل بخلاصه من الأولى وانه تعالى لمرجو أن يلطف به فى الأخرى ، بعد ما ابتلاه به فى دنياه :

« والطف مولاى بضعيفك اذا اقترى ، ونزل فى بطن الأرض عن القرى . ضيفك ، ولكل ضيف قرى ! ما أجدرك بالرأفة وما أحرى » .

« حمدا لك الهى ! لا أعلم وقت اسكانك لى فى دار البلاء ، وقد عشت فيها ما شئتَ وأعيش فيها ما تشاء ، وأنا شـــاك اليك أثقال الزمن . فاذا قضيت عنها الرحلة فأعنّى على تلك الغصص والغمرات ، فانى منها فرِق ، وبى من الحياة ملل ! » .

وما كان أشـــد تعبه من الحيـــاة ، وتوقه الى الراحة من عذابه بها :

دعا لى بالحيـــاة أخـــو وداد
رويدك انما تدعـــــو عليّـــا
وما كان البقـــاء لى اختيـارا
لو أن الأمـــر مردود اليّـــا

*

ان يرحل النـــاس ولم أرتحـل
فعن قضـــاء لم يفـــوض الىّ
خلّفت من بعـــد رجال مضـــوا
وذاك شر لى ، وشر عــــــلىّ

*

اذا غدوت ببطن الأرض مضـطجعا
فثَم أفقـد أوصــابى وأمراضى

*

اذا طفئت فى الثرى أعـــــين
فقـد أمنت من عمى أو رمـــد

وما أقسى أن يكون الموت أملا للشاعر الذى عمق احساسه بمحنة الموت ، ورأى فيه مأساة الانسان الكبرى ، وجاءت مراثيه فى أهله وأصـحابه ، مرثية للانسانية المقودة برغمها الى البلى والعفن ، والدود والتراب ، لا ينجيها من هذا المصير المحتوم عاصم ، ولا تدفعه عنها حيلة طبيب ، أو رقية راق ، أو دموع أهل وأحباب !

وانه مع ذلك ليقول فى مرثيته لأبيه :

وجدنا أذى الدنيـــا لذيذا كأنما

جنى النحل أصناف الشقاء الذى نجنى

فما رغبتْ فى الموت كُدْرٌ مسيرُها

الى الورد خمس ، ثم يشربن من أجن

يصادفن صقراً كل يوم وليـــــلة

ويلقين شرا من مخـــالبه الحُجن

ولا قلقات الليــل باتت كأنهـــا

من الأين والادلاج بعضُ القنا اللدن

وخوف الردى آوى الى الكهف أهلَه

وكلّف نوحا وابنه عمـــل السفن

وما اســتعذبته روح موسى وآدم

وقد وُعِـدا من بعــده جنتى عدن

قالها وهو فى الثلاثين من عمره ، وظل الى آخر العمر يجاهد حبه للدنيا ، ويئن من عجزه عن السلو عنها :

مهجتى ضـــــــد يحاربنى أنا منى ، كيف أحترس ! ؟

الأديب الحرّ

أعاذل قد ظلمتنا المــــــلوك ، ونحن على ضعفنا أظلم

(اللزوميات)

لن نستطيع أن نقدر أبا العلاء حق قدره ، مالم نتحرر من فكرة انتصاره على الدنيا وزهده النفسى فيها ، بمجرد أن أعلن انسحابه منها ، اذ لو صح القول بأنه « وطئها بقدميه فانقادت له » كما يقول الأستاذ عبد العزيز الميمنى ، و « ملأ قلبه عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل » كما يقول أستاذنا الدكتور طه حسين ، أو صح الزعم بأن الزهد كان طبيعة فيه ، لما كان فى سلوكه ما يغرى بالوقوف عنده أو يحمل على شىء من التقدير ، اذ يكون الحرمان هينا عليه لا يحمله أدنى مشقة ، ما دام يستجيب لما فى طبعه من زهد فيما حرّم منه ، وعزوف عما امتنع عنه .

وانما كان سلوكه موضع تقدير ، لأن الرجل استطاع مع حبه للدنيا وعجزه عن السلو عنها ، أن يصبر على ذلك الحرمان الطويل الصارم ، فقدّم لنا مثلا فذا لبسالة المجاهدة ، وكشف عما تطيقه البشرية من بطولة الاحتمال .

واذا لم يكن قد أفلح فى قهر حب الدنيا فى نفسه ، فانه قد

استطاع أن يمضى فى مجاهدته لها بارادة عجيبة ، وصمد للتجربة حتى آخر العمر . على قسوة ما كابد من أشـواق بشريته ، وما احتمل من جدل خصومه ومناظريه ، وانكار من نقموا عليه مخالفة الجماعة والخروج على سننها وأعرافها .

وفى الفصل الذى مضى عن مناخ العصر ، ما يعطينا ملامح البيئة العامة التى عاش فيها أبو العلاء وما وصلت اليه من شر ونكر . وقد اعتزلها ولكنها لم تعتزله ، وانسحب منها لكنها شغلته وشغلت به ، ومن ثم لم يكن فى طاقته أن يجمّد احساسه بشرور العصر ويعطل تفكيره فى فساد المجتمع ، وهو قد عاد مع العزلة مرهف الحس يقظ الوجدان طليق التأمل نافذ البصيرة .

ولا كان بمستطيع أن يلجم لسانه وقد تحرر من قيود الرغبة والرهبة ، وهو ما باع الدنيا على حبه الفطرى لها ، الا لكى يشترى كرامة نفسه وحرية رأيه وصدق كلمته ، فيجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة ، ويصدع بالحق الذى يخـونه غيره نفاقا أو رياء ..

وماذا يستطيعون أن ينالوا منه ؟

هل يحددون اقامته ، أو يمسكون عنه الرزق ، أو يقطعون عنه صلة تأتيه من ذى جاه ؟ أو يؤذونه فى عرضه وبنيه ؟

لقد سد عليهم كل طريق ..

حدد لنفسه مكانا لاقامته لا يبرحه ، وقنع من الرزق بما دون الكفاف لا يتلمس فيه زيادة ، وليست له زوجـة تثقله بعبء أو مطلب ، ولا ولد يحمل همه ويجبن بسببه .

وانه لنقى العرض طاهر السلوك نظيف السيرة ، عف اليد والضمير .

فماذا بقى له عندهم ، وقد انسحب من السباق وتخلى لهم عن الدنيا وما فيها ؟

باعها أشد ما يكون شغفا بها ، واشترى حريته وكرامته ، فى عصر أذل الحرص فيه أعناق الرجال .

ووجد رسالته فى انتظاره منذ انسحب من بغداد ، احتجاجا عمليا على فساد البيئة وضلال المقاييس واختلال الموازين ..

فهو وحده ، ولا أحد سواه ، من يجرؤ على أن يصدع جبروت الحكام وطغيان الولاة بمثل قوله :

ملّ المقـــــام فكم أعاشر أمــة
أمرتْ بغير صـــــلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيـــة واستجازوا كيدها
وعــدَوا مصالحها وهم أجراؤها

*

لقد ساس أهل الأرض قوم تفتقت
أمـــــور فما ألفت لهم يد راتق

*

أما لأمير هـــذا المصر عقــــل
يقيم عن الطريق ذوى النجـــوم
فكم قطعوا السبيل عــلى ضعيف
ولم يعفوا النساء من الهجـــوم

همُ ناس ولو رجمــوا استحقوا
بأنهم شـــياطين الرجـــوم
اذا افتكر اللبيب رأى أمـــورا
ترد الضاحكات الى الوجـــوم

*

يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معـا
ونحن بعدهم فى الأرض قطـــان
ان العــراق وان الشام مـذ زمن
صفران ما بهما للملك ســـلطان
ساس الأنام شـــياطين مسـلطة
فى كل مصـــر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمصَ النـاس كلهم
ان بات يشرب خمــرا وهو مبطان
تشـابه النجـر : فالرومى منطقـه
كمنطق العرب ، والطـائى مرطان
متى يقـــوم امـام يستقيد لنا
فتعرف العدل أجبـــال وغيطـان
صلّوا بحيث أردتم فالبـــلاد أذى
كأنما كلها للابل أعطـــــــان

*

كل الديار ذميم لا مقـــام به
وان حللت ديار الوبل والـــرهم

ان الحجاز عن الخيرات محتجـز
وما تهامـة الا معـدن التهـم
والشام شؤم وليس اليـمن فى يـَمَن
ويثرب الآن تثريب عـلى الفِهم

*

يـا رب أخرجنى الى دار الرضى
عجـلا فهذا عـالـَم منكوس
ظلوا كدائـرة تحول بعضـها
من بعضـها ، فجميعها معـكوس
وأرى ملوكا لا تحـوط رعيـة
فعـلام تؤخـذ جـزية" ومكوس

*

يسوسـون الأمـور بغير عقـل
فينفذ أمرهم ويقـال : ساسـه
فأفٍ من الحيـاة وأفٍ منى
ومن زمن رئاسـته خَساسـه

*

ظلمٌ مستضعف وأخـذ مـكوس
وحيـاة فى عالم منـكوس

*

أيا والى المصر لا تظّـلمن
فكم جـاء مثـلك ثم انصرف

تواضــع اذا ما رُزِقت العــلاء
فذلك ممــــا يزيــــد الشرف
وان ألبس الله ثوبَ الشـــــفاء
فلا تؤثرن عليــــه الــتـــــرف
تغيض الميـــــــــاه وقد طالما
تيممها وارد فاغتــــــــرف
ومن أمّنته خطـوب المنـــون
تخوف من هــرم أو خـــرف
يقـــارف مســـتكبرات الذنوب
ويغفــل عن ذنبـــه المقتــــرف

*

بكل أرض أمـــير ســـوء
يضرب للنــاس شـــرَّ سكّه
قــد كثر الغش واســـتعانت
به الأشــــــداء والأرِكّه
فخـــــــلّهم والذى أرادوا
وحُل بالقـــــدس أو بمكه
صكّهم الدهـــــر صك أعمى
تكتب أيدى الفنـــاء صــكّه

*

يســود النـــاسَ زيد ثم عمـــرو
كذاك تقلب الدولات دولـــــه

ورب شـــهادة وردت بـــزور
أقام لنصـــها القاضى عـــدوله
ومن شر البـــرية رب مثلك
يريد رعيـــة أن يســـجدوا له

*

حـــكم النـــاسَ غواة مثـــلما
حكمت قبـــل حصـــاة وزُلَم

*

قد أسرف الناس فى الدعوى بجهلهم
حتى ادّعـــوا أنهم للخلق أرباب
البابهم كان باللذات متصـــلا
طولَ الحيـــاة وما للقوم ألبـــاب

*

لعمرك ما فى عالم الأرض زاهـــد
يقينا ولا الرهبان أهـــل الصـــوامع
أرى أمراء النـــاس يمسون شرهم
اذا خطفوا خطف البزاة اللوامـــع
وفى كل مصر حاكم فمـــوفق
وطاغ يحابى فى أخس المطامـــع
يجـــور فينفى الملك عن مستحقه
فتسكَب أسراب العيون الدوامع

ومن حـــوله قوم كأن وجوههم
صفاً لم يـُليّـن بالغيوث الهـوامع
عدول نُهم ظلم الضعيف ســجية
يـُسمون أعــراب القرى والجوامع

وانه ليحقر كبرياء الملوك ويـُسفه غرورهم بمثل قوله :

كذب الذى سمّى المملّك قاهــرا
نحن الأذلة والمليك القـــاهر
وكذاك يـّدعى طاهـــرا من كلـّه
نجس ، ويفقد فى الأنام الطـاهر

*

تلقـّب مـَلـْك" قاهــرا من ســفاهة
ولله مولاه الممالكُ والقهـــــرُ

*

لم أرض رأى ولاة لقبــــوا
ملكا بمقتــــدر وآخـــر قاهــرا
هذى صفات الله جـل جـــلاله
فالحق بمن هجر الغـــواة مـُظاهرا
كم قائم بعظـــاته متفقــــــه
فى الدين ، يوجد حين يـُكشف عاهرا
وعلمت قلب المرء يغرق فى هــوى
دنياه ، خاب مكاتما ومجاهـــــرا

*

يَسمّون بالجهل عبد الرحيم
وعبد العزيز وعبد الصمد
وما بلغوا أن يكونوا له
عبيدا ، وذلك أقصى الأمد !

وهو وحده ، الذى يستطيع أن يفضح نفاق الشعراء وزيف محترفى التدين ونفعية أصحاب المذاهب بمثل قوله :

فِرقا شعرتْ بأنها لا تقتنى
خيرا ، وأن شرارها شعراؤها
وتجادلت فقهاؤها من حبها
وتقرأت لتنالها قراؤها

*

وما أدب الأقوام فى كل بلدة
الى المين الا معشر أدباء

*

قد حُجب النور والضياء
وانما ديننا رياء
وهل يجود الحيا أناسا
منطويا عنهم الحياء
يا عالم السوء ما علمنا
أن مُصليكَ أتقياء

لا يكذبنّ امـــــرؤ جهول
ما فيـك لله أوليـــــــاء

ويا بلادا مشى عليهـــــــا
أولـــو افتقـــار وأغنيـــاء

اذا قضى الله بالمخـــــازى
فكل أهليـــــك أشـقياء

*

فقدتْ فى أيامـــك العلمـــاء
وادلهمّت عليهم الظلمـــاء

وتغشى دهمـــاءنا الغىّ لمّـــا
عُطلت من وضـــوحها الدهماء

خلّنى يا أخى أســتغفر اللـــ
ـه فلم يبق فىّ الا الذمـــاء

ويقال الكرام قـــولا وما فى المـ
ـصر الا الشـــخوص والأسماء

*

رويدك قد غُررت وأنت حـــر
بصاحب حيـــلة يعظ النساءَ

يحرم فيـــكم الصـــهباء صبحا
ويشربها عـــلى عمـد مســاء

تحسّاها ، فمن مزج وصـــرف
يُعلّ ، كأنما ورد الحســـاء

يقول لكم : غدوت بلا كســـاء
وفى لذاتها رهن الكســـــاء

*

يقولون : فى المصر العدول ، وانما
حقيقة ما قالوا العـدول عن الحق

*

تســـــتروا بأمـــور فى دياتتهم
وانما دينهـــــم دين الزناديق
نكذب العقل فى تصـــديق كاذبهم
والعقل أولى باكرام وتصـــــديق

*

ما فيهم برٌّ ولا ناســــــك
الا الى نفـــع له يجـــــذب
أفضـــل من أفضـــلهم صـخرة
لا تظلم النـــــاس ولا تكذب
لعل أناســا فى المحاريب خـوّفوا
بآى ، كنــاس فى المشارب أطربوا

*

اذا رام كيدا بالصـــــلاة مقيمها
فتاركها عمــدا ، الى الله أقــرب
فلا يـمس فخّارا من الفخــر عائد
الى عنصر الفخار ، للنفــع يضرب

لعـــل اناء منـــه يُصنع مـــــرة
فيأكل فيه من أراد ويشـــــرب
ويُحمل من أرض لأخرى وما درى
فواها له بعـــد البلى يتغـــــرب

*

وما احتجبتَ عن الأقوام من نسك
وانما أنت للنـــــــكراء محتجب

*

لعمرك ما فى عالم الأرض زاهـــد
يقينا ، ولا الرهبـــان أهل الصوامع

*

تدين غاويهم حـــذارَ أمـــيرهم
فلما انقضت أيامه ، ذهب النســك
فأصبح من بعد التمسك بالتقى ،
لأردانه من طيب فاجـــــرة مسك
وهل ينفع التمسيك ، والمسك تحته
خبيث نبيث والذى فوقه المســك

*

اذا رؤساء الناس أمَّوا تنـــازعوا
كئوس الأذى ، هل فى الزجاجة عندم
ولم يُرضهم شرب المـــدامة أذهبت
حجى النفس الا أن يمازجها الدم

جهلت أقاضى الرىّ أكثر مأثمـــا
بما نصّه ، أم شـــــاعر يتغزل
وأعلم أن ابن المعلم هـــــازل
بأصـــحابه والباقلانى أهـــزل
وقارئكم يرجـــو بتطريبه الغنى
فآض كما غنَّى ليكسب زلـزل

*

أرجئـــوا أو اعتـــزلوا فانى
عن مقـــامكم بمعـــــزل

*

وليس حبر يبـــدع فى صـــحابته
ان سـام نفعا بأخبـــار تقولها
وانما رام نســوانا تزوجهـــا
بما افتراه ، وأمـــوالا تمولهـــا
لا يخدعنك داع قام فى مــــلأ
بخطبة زان معنـــاها وطولهـــا
فما العظات وان راعت سوى حيل
من ذى مقال عـلى ناس تحوّلهـا

ثم من غير أبى العلاء يجرؤ على أن ينغّص عيش الظالمين ، بالالحاح فى مثل هذا الوعيد بدعوة المظلوم :

خف دعـــوة المظلوم فهى سريعة
طلعت فجاءت بالعـــذاب النـازل

عُزِلَ الأمــــير عن البلاد وما لـــه

الا دعاء ضـــعيفها من عـــازل

*

لا شيء فى الجــــــو وآفــاقه

أصـــــعَدُ من دعـــوة مظلوم

وهو الذى يملك أن يفضح نفعية أصحاب المذاهب فى عصره بمثل قوله :

انما هــذه المذاهب أســـبا ب لجلب الدنيا الى الرؤسـاء

غرضُ القوم متعة لا يرقــو ن لدمع الشــمّاء والخنساء

كالذى قام يجمع الزنجَ بالبصـ رة والقرمطىِّ بالأحســـاء

ويلتمى ضراوة الطبقية ، وشرور العصر بهذه اللعنة :

خَبَ الذى ســار عن دنياه مرتحلا

وليس فى كفّه من دينـــــه طرف

لا خــير للمرء الا خير آخــــرة

يبقى عليه فذاك العـــز والشرف

نرجو السلامة فى العقبى وما حسنت

أعمالنا فيُرجى الفـــوز والغرف

.. بان قوم عن الأولى بما جمعــوا

من الحطام ولكن بالذى اقترفــوا

يعرى الفقير وبالدينــــار كسوته

وفى صـــوانك ما أعـــدادُه خرف

*

والنـــاس ضأن تساوت فى غرائزها
يلقون بالأرض كفـّا كلما افترعــوا
ويدّعى الرتبــــة العليا أخسـّـهم
فما يجاب لهم داع اذا ضرعـــوا
وأدركوا بدعاويهم مـــدى زحــل
من الرغام بما قاســوه أو ذرعــوا

*

اتق الواحـــد المهيـــــ ـــمن فاللــــــه أول
ان قـــــوما لما يكو ن حــــراما تأولــوا
رغـّبـوا النــاس فى المحـا ل وراعــوا وهوّلــوا
ورأى اللـــــه أنه كذب ما تقولـــــوا
ضربوا فى البـــلاد عصـــ ـرا فطافوا وجولــــوا
خـُولـــوا نعمـــة فلم يشــــكروا ما تخـولوا
واستطالت عـــلى الـورى عـُصب مــا تطولـــوا
طلب النـــاقد القليــــ ـل فمانوا وســــولوا
ظلموا البائس الفقيــــ ـر وأعطــوا ونولــوا
واســـتمالوا قلوب قـــو م الى أن تمولـــــوا
فانظــــــروا الآن فيهم أى غـــول تغولـــوا

*

يـَباين شـــكل غـــيره فى حيـاته
فان هلكا ، لم تـُلف بينهما فـــرقا

ومن يفتقد حال الزمـــان وأهله
يذم بهم غربا من الأرض أو شرقا
يجد قولهم مينـا وودّهم قِـلى
وخيرهم شرا وصنعتهم خـــرقا
وبشرهم خـــدعا ، وفقرهم غنى
وعلمهم جهـــلا وحكمتهم زرقـا
اذا طلبوا أقصى العـــلا اتخذوا له
بصُمّ العوالى فى ترائبكم طُرقـا
اذا كنتم أوراق أثل زهـوا لكم
جراد نبـــال كى تبيدكم ورقـــا
هم الناس : أجبال شوامخ فى الذرى
وأودية لا تبلغ الأكم والبـــرقا
فسكران يسترقى ويبـــدل بسلة
وآخر صاحى اللب يغضب أن يُرقى

*

عجبت وكم عجب فى الزمـــان
لرأى بنى دهـــرك الفـــائل
فمقتنـــا لمـــا أورثوا من غنى
وما وهبـــوه من النــــائل
فلا تمحلنّ لهم منّــــــة
ولو بِت فى صـــورة العـــائل

ألم ترنى وجميـــع الأنـــا
م فى دولة الكذب الذائــــل

*

لعـــل المــوت خــير للبرايا
وان خافوا الردى وتهيبـــوه
أطاعوا ذا الخـــداع وصــدقوه
وكم نصــح النصــيح فكذبوه
وغيّر بعضـــهم أقوال بعض
وأبطلت النهى ما أوجبــــوه
فلا تفــرخ اذا رُجّبت فيهـــم
فقد رفعوا الدنىء ورجّبـــوه
وبدّل ظاهرَ الاســـلام رهط
أرادوا الطعن فيه وشـــذبوه
وما يحدثْ فانا أهــــل عصر
قليل فى المعاشر منجبـــوه
صحبنا دهـــرنا دهـــرا ، وقدما
رأى الفضـــلاء ألا يصــحبوه
وغيظ به بنـــوه وغيـــظ منهم
فعذّب ساكنيه وعـــذبوه
وهــل تُرجى الــكرامة من أوان
وقد غلب الرجـــال مغلّبـــوه

وهـــــل من وقتهم أبغى وأطغى
علـى أى المذاهب قلبـــــوه ؟
أجلّوا مكثرا وتنصـــــــفوه
وعـــابوا من أقلّ وأنّبــــوه
ولم يرضـــوا لما سكنوه شـيدا
الى أن فضـــوه وذهبـــوه
فان يأكلهم أســـفا وحقـــدا
فقـد أكل الغـــزال مربيـــوه
رجـــوا ألا يخيب لهم دعـــاء
وكم ســأل الفقـــير فخيبــوه
ألظّوا بالقبيـــح فتابعـــوه
ولو أمروا به لتجنبـــــــوه
مضت أمم عـــلى شرخ الليـالى
اذا عمـــدوا لعقـــد أربّوه
وكم تركوا لنـــــا أثرا منيفا
يعود بآيـــــة متأوبــــوه
لقـد عمـروا ، وأقسمت الرزايا
لبئس الرهط رهط خــــربوه
فاما عاث فيه حاســــــدوه
واما غــاله متكســـبوه
وللأرمين خطب مســـــتفيض
يعـــوم بلجّه متعجبـــــوه

ولو قدروا علـى ايوان كسـرى
لســاموه الردى وتعقبـــوه
وقد منّــوا برزق الله جهـــلا
كأنهمُ لبـــاغ ســـببوه
أديل الشرُّ منــكم فاحـــذروه
ومات الخــير فيــكم فاندبوه !

* * *

الليـــالى مغيّراتُ الســجايا
كم جعلن الزيفانَ شرب عَيــوف
قد غــدا القــوم للنضــار فنالو
ه ، وبتنـــا ومن لنـــا بالزيوف
أو لا يبصر الفتى الذهب الأحـــ
مر تُحذى به نِعالُ الســيوف !

* * *

ماذا أفدتَ بأن أطلت تفـــكرا
فيها وقد أفنيت ليـــلك ســاهرا
وخمول ذكرك فى الحيـــاة سلامة
ودهاك مَن أمسى لذكرك شــاهرا
فتجنبنْ متوافقين عـــلى الأذى
متخالفين بواطنا وظواهـــرا
وأخالنا فى البحـــر ليس بســالم
منه الذى ركب الغــوارِب ماهرا

ملكوا فما سلكوا سبيل الرشد بل

ملأوا الديار ضـــواربا ومزاهرا

* * *

أجل ، كان أبو العلاء وحده ، هو الذى يستطيع أن يقول كلمة الحق فى عصر أخرست السيوف والأطمـاع فيه الألسنة والضمائر .

لقد تحرر من رغبة ورهبة ، ولكنه لم يتحرر من مسئوليته الأدبية فى مقاومة الطغيان والفســاد والنفعية ، والدفاع عن الجماهير التى أهدر العصر حرمة انسانيتها ، وكيف كان يستطيع أن يسكت على البغى والشر ، وانه لكما قال :

فمالى لا أقـــول ولى لســـان

وقد نطق الزمـــان بلا لســان

وبيعت بالفلوس لكل خـــزى

وجـــوه كالدنانير الحسان !

وقد اعتزل ، لكن أنى له أن يفر من تبعة الانتماء الى عصر فسد ، وفسد أهله :

وأين فرارى من زمانى وأهـــله

وقد غص شرا نجده والتهـــائم !

كلا .. لا مفر من التزامه أديبا بقضايا المجتمع ، التزاما فرضه على نفسه تلقائيا ، فى عصر لم يكن فيه مجال للتداعى بحق الجماعة ، أو رسالة الأديب .

أو بعبارة أدق : فرضه عليه ضميره الحر وانسانيته المصفاة ، وشعوره بتبعة الأدب وأمانة الكلمة .

* * *

واذا كانت الجماهير قد تبلّد حسها لطول ما ألفت من ظلم ، وفداحة ما تعرضت له من تغرير وتضليل ، وما تسلط على وجدانها من الحاح فى تبرير فساد الأوضاع وطغيان الحكام ، فان أبا العلاء بوجدانه الحى وحسّه المرهف ، هو القادر أن يحس لها ما تغفل عنه ، وأن يستشرف لما عز عليها أن تستشرف له من العدل الاجتماعى والخير العام .

وانه مع ذلك ليضيق أحيانا بتبلدها وغفلتها فيصيح فيها بملء السخط والمرارة والاثارة :

اسكتْ ، وخلّ مُضلّهم وشئونه
ليسوقهم بعصاه أو بحسامه

نُصِحوا فما قبلوا ، وباعوا كثكثا
من شر معدنه ، بقيمة سامِه

فكأنها غنم ترود اسامَها
من لا يبالى كيف حال مسامه

*

أمّا اذا ما دعا الداعى لمكرمة
فهم قليل ، ولكن فى الأذى حشد

ويقذفهم بحكمه الصارم :

أعاذل قد ظلمتنا الملوك
ونحن على ضعفنا أظلم

ذلك لأن أبا العلاء ما باع الدنيا على صدق حبه لها ، الا لكى يشترى كرامة نفسه وحرية رأيه وصدق كلمته ، بحيث يستطيع أن يجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة ، ويصدق فيما يزيفه قائلون غيره ، من طلاب المنفعة وتجار الأدب :

ان عذُب المين بأفواهكم
فان صدقى بفمى أعذب

طلبت للعالم تهذيبهم
والناس ما ثُقّفوا ولا هُذّبوا

*

اذا مدحوا آدميّا مدحـ
ـتُ مولى الموالى ورب الأمم

وذاك الغنى عن المادحـ
ـين ولكن لنفسى عقدت الذمم

له سجد الشامخ المشمخر
على ما بعرنينه من شمم

ومغفـــرة الله مرجـــــوة
اذا حـُبست أعظمى فى الرمــــم
مجاور قوم تمشى الفنــــــــا
ء مـــــا بين أقدامهم والقــــمم
رأيت بنى الدهـــــر فى غفـلة
وليست جهـــــــالتهم بالأمم
فنسك أناس لضعف العقـــول
ونسك أناس لبُعــــدِ الهمم

خصومة واتهام

وقد نطقوا مَيْناً عــلى الله وافتروا
فما لهمُ لا يفترون عليــــــــكا
(اللزوميات)

هل كان من الممكن أن يدعه كل هؤلاء الخصوم يكشف عن غيهم ونفاقهم وزيفهم ؟

أو كان من المتصور ، أن يخلّوا بينه وبين الجماهير المضللة ، يوقظ فيها الوعى والتمرد ، ويمزق عن وجدانها حجاب الغفلة ؟

مثل أبى العلاء من يعد فى نظر عصره — وكل عصر فاسد — خارجا على المجتمع ، متمردا بسلوكه وقوله على أوضاع مقررة ونظم سائدة وأعراف مألوفة . وليس من طبيعة الأشياء ، أن يغفر المجتمع هذا الخروج المتحدى ، وأن يدع أبا العلاء يقول ما شاء ، دون أن يتصدى له بتحد مقابل ، ويفرض عليه عقوبة التمرد والعصيان ..

واذ لا سبيل الى زجره بحرمان أو اغرائه بعطاء ، فان فى عقيدته منفذا اليه ، من حيث لا يحتسب ..

مستغلين فى ذلك ، العاطفة الدينية للجماهير ، وموقنين أنها ما تكاد تسمع عنه قالة سوء تجرح عقيدته ، حتى تصد عنــه

وتنكره ، دون أن تتريث لتتحرى التهمة أو تميز حقا فيها من باطل !

وليس من الضرورى أن يكون خصومه هم الذين يتصدون لتجريحه ، بل حسبهم أن تنطلق شائعة الاتهام من غير أن يُعرف مصدرها ، ليتطوع بترويجها حشد كاثر ، من المتدينين البسطاء غضبا لدينهم !

وقلّ بين أحرار الفكر والكلمة ، من لم يتهم فى عقيدته . وأبو العلاء قد خالف بسلوكه جمهور المسلمين ، فحرم على نفسه ما أحل الله من طيبات الرزق ، وجهر بأقوال تنم عن حيرته وشكه ، ومنها ما يستطاع تأويله بما ينكره الجمهور ، وبأقوال أخرى صريحة التجريح لرجال الدين ، على اختلافهم ..

فمن هنا يمكن أن يُطعن !

وقد تلقى أبو العلاء الطعنة الجارحة فى حياته ، وظلت تلاحقه بعد موته :

ولعلك تذكر مما مر بك من حديث رحلته الى بغداد ، ما قيل عن مطاردة الفقهاء اياه لبيتين قالهما فى اليد ، ديتها خمسمائة دينار ، وتقطع فى السرقة ولو كان المسروق ربع دينار !

ويروون من أخباره ، أن القاضى أبا يوسف عبد السلام القزوينى قال : « قال لى المعرى : لم أهج أحدا قط . فقلت له : صدقت ، الا الأنبياء عليهم السلام .. فتغير لونه » .

وأن القاضى المنازى قال : « اجتمعت بأبى العلاء المعرى بمعرة النعمان وقلت له : ما هذا الذى يروى عنك ويحكى ؟

فقال : حسدنى قوم فكذبوا على وأساءوا الى . فقلت له : على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟ فقال : والآخرة أيها الشيخ ؟ وظل يكررها » .

ولقيه ثالث بالآية الكريمة :

« ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

واحتمل الرجل على مضض ، مفوضا أمره الى خالقه ، وموقنا أن مثل هذا البلاء ضريبة مفروضة على من يتحدى العرف العام ، وقلما سمح المجتمع لفرد أن يشذ عنه ويخرج عليه .

وهم بعد قد افتروا على خالقهم ، فأى عجب فى أن يفتروا عليه ؟

وقد نطقوا ميتا على الله وافتروا
فما لهم لا يفترون عليكا ؟

* * *

ولقد كانت صلابته فى الزهد والتعفف ، مظنة أن تحميه من الظنة والريب ، لكنها اتخذت مطعنا فيه من حيث لا يدرى ..

فالعصر الذى هضم الحقوق وأهدر الحرمات واقترف الكبائر المنكرات ، كان له فى المسألة رأى آخر .

أو لم يحرم أبو العلاء ما أحل الله من طيبات الرزق ؟

أو لم يقنع بما يستره من خشن الثياب ، وما يقيم أوده من ميسور النبات ؟

يمكن اذن أن يعد الزهد اثما ، والقناعة خطيئة ، والصوم عن اللذات معصية ..

ومثل هذا جائز سائغ ، متى اختلت الموازين وضلت المقاييس :

لعمرى لقد عز المباح عليكم وهان بجهل ما يُصان ويحظر

وقد رأيت كيف تمارض داعى الدعاة ، ليحرج أبا العلاء على الملأ من الناس ، وكيف أرهقه بخصومة أخرجت القضية من نطاق السلوك الشخصى لزاهد متعفف ، الى جدل كلامى فى حكمة الخالق ونظام الكون وترتيب الكائنات وقضية الخير والشر ..

وأفلح فى احراجه ، وأتعبه .

ومن قبل تعب المتكلمون فى القضية ، وأعياهم أن يهتدوا الى حلها .

لكنه لم يفلح فى حمـله على العدول عن مسلكه فى رفض الحياة انكارا لفساد عصره وشرور مجتمعه ..

ورضى — وهو فى الخامسة والثمانين من عمره — « أن يلقى الله سبحانه وهو لا يُطالب الا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فاذا وصل الى هذه الرتبة فقد سعد » .

ولقد حاول آخرون ، عن رفق به أو حقد عليه ، أن يقنعوه بالعودة الى الصف ، كى يعيش كما يعيش أهل العصر ويخضع لنظم الجماعة وأعرافها ، وأطالوا مجادلته على ما سمعت ، وهو يبدى العذر عن رفضه ، ويبرر سلوكه بما يظنه كافيا للاقناع ، أو قد يسكت على مضض وتعب ويأس .

دون أن يستجيب لما أرادوا .

وعوت الضباع فى أثره ، وراحت تطارده حيث اختفى رهين محبسه ، وكأنها تعتفيه وتلتمس لديه غذاءها :

قد استخفيت كالجسد الموارَى
ولكن الطوارق تختفينى
عفا أثرى الزمان وما أغبّت
ضباع فى المحلة تعتفينى

على أن ما عاناه من ذلك كله ، كان أهون عليه مما آلمه وأضناه من افتراء المفترين : أساءوا تأويل أقواله ، وحرفوها عن مواضعها ، وزيفوا عليه مالم يقله ، فأحوجوه — على المعروف من ابائه واستغنائه عن الأمراء والولاة — الى أن يكتب (رسالة الضبعين) الى معز الدولة ثمال بن صالح أمير حلب ، يشكو اليه فيها رجلين حرفا بعض شعره فى (اللزوم) قصدا الى اهلاكه ، ويسأله أن يرجع فيه الى نسخ من الديوان فى حلب ، مكتوبة بخطوط ثقات من كتّابه أمناء أتقياء :

« وفى حلب حماها الله نسخ من هذا الكتاب ، بخطوط قوم ثقات يعرفون ببنى هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه . وان أحضرت — النسخ — ظهرت الحجة بما قلت فيه » .

كما أحوجوه الى أن يدافع عن نفسه بقوله ، يرد على القاضى المنازى حين سأله فيما ينسب اليه من أقاويل :

« حسدنى قوم فكذبوا على » .

وكذلك استجاب » على كره ، لالحاح أصدقائه ، فأملى كتابه (زجر النابح) شرحا لما أسىء تأويله من شعره فى (لزوم ما لا يلزم) وأبطل فيه — كما يقول ابن العديم — طعن المزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح وايمانه الصريح ، ووجّه كلامه الفصيح « ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه بـ (نجر الزجر) بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر » فلم يمنعهم زجره ، ولا اتضح لهم عذره » .

* * *

وشاعت كلمة السوء فيه » ومن شأنها أن تشيع ، فجرح ببعض ما قال مما قد يوهم ويشكل » وبغيره مما لم يقل ؛ مع أن أكثر مصنفاته فى الزهد والعظات وتمجيد الله سبحانه . و (ديوان اللزوم) نفسه ، مليء بأنفاس ايمانه الصادق وأناشيد ضراعته للخالق .

وشهد له الذين عرفوه عن قرب بصحة العقيدة وصدق الايمان ، وفيهم من كان قد استراب فى أمره تأثرا بشائعات السوء » ثم بان له من حقيقته ما جعله يشهد له بصحة الدين وقوة اليقين . نقل « السلفى » باسناد الى القاضى أبى المهذب عبد المنعم السروجى قال : « سمعت أخى القاضى أبا الفتح يقول : دخلت على أبى العلاء التنوخى بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة ، بغير علم منه . وكنت أتردد اليه وأقرأ عليه » فسمعته وهو ينشد من قيله — والأبيات من ملقى السبيل — :

كم بودرتْ غـادة كعاب وعـُمّرت أمُّهـا العجوز

أحرزها الوالدان خــــوفا والقبر حــرز لها حــــريز
يجوز أن تبطىء المنــــايا والخلد فى الدهــر لا يجوز

ثم تأوه مرات ، وتلا قوله تعالى : (ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره الا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد) ثم صاح وبكى بكاء شديدا ، وطرح وجهه على الأرض زمانا . ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : سبحان من تكلم بهذا فى القدم . سبحان من هذا كلامه . فصبرت ساعة ثم سلّمت عليه فردّ وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم قلت : أرى يا سيدنا فى وجهك أثر غيظ . فقال : لا يا أبا الفتــح ، بل أنشدت شيئا من كلام المخلوق ، وتلوت شيئا من كلام الخالق ، فلحقنى ما ترى ! فتحققت صحة دينه وقوة يقينه » .

فهل نتهم الخبر ؟

لا علينا أن نفعل ، وأبو العلاء معنا ، دليل رحلة ، يقول فى (رسالة الغفران) التى أملاها فى صميم عزلته :

« وأجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه ، كتاب بهر بالاعجاز .. ما حذى على مثال ولا أشبه غريب الأمثال . ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهّان ذوى الأرب . وجاء كالشمس اللائحة ، نورا للمسرة والبائحة . لو فهمه الهضب الراكد لتصدع .. (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وان الآية منه أو بعض

الآية ، لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء فى جنح غسق ، والزهرة البادية فى جدوب ذات نسق « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وكانت بلبلة !

اضطرب الناس فى أمره : بين ما يعلمون من صلابته فى الزهد والورع ، ويسمعون من أماليه وأشعاره فى التوحيد والعظات ، وشهادة من شهدوا له بصحة العقيدة وقوة اليقين .

وبين ما يشهدون من خروجه على الجماعة بالامتناع عما أحل الله من طيبات الحياة الدنيا وزينتها ، ويسمعون من قدح فيه وتجريح ..

أو كما قال داعى الدعاة فى رسالته الثالثة الى أبى العلاء :

« .. فلما رمت بى المرامى الى الشام ، سمعت أن الشيخ — وفقه الله — بفضل فى الأدب والعلم ، قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل . ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبا . وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا .. » .

وبعض هذه البلبلة ، يكفى لصد عامة الجماهير عن أبى العلاء ، والحيلولة بينه وبينهم ..

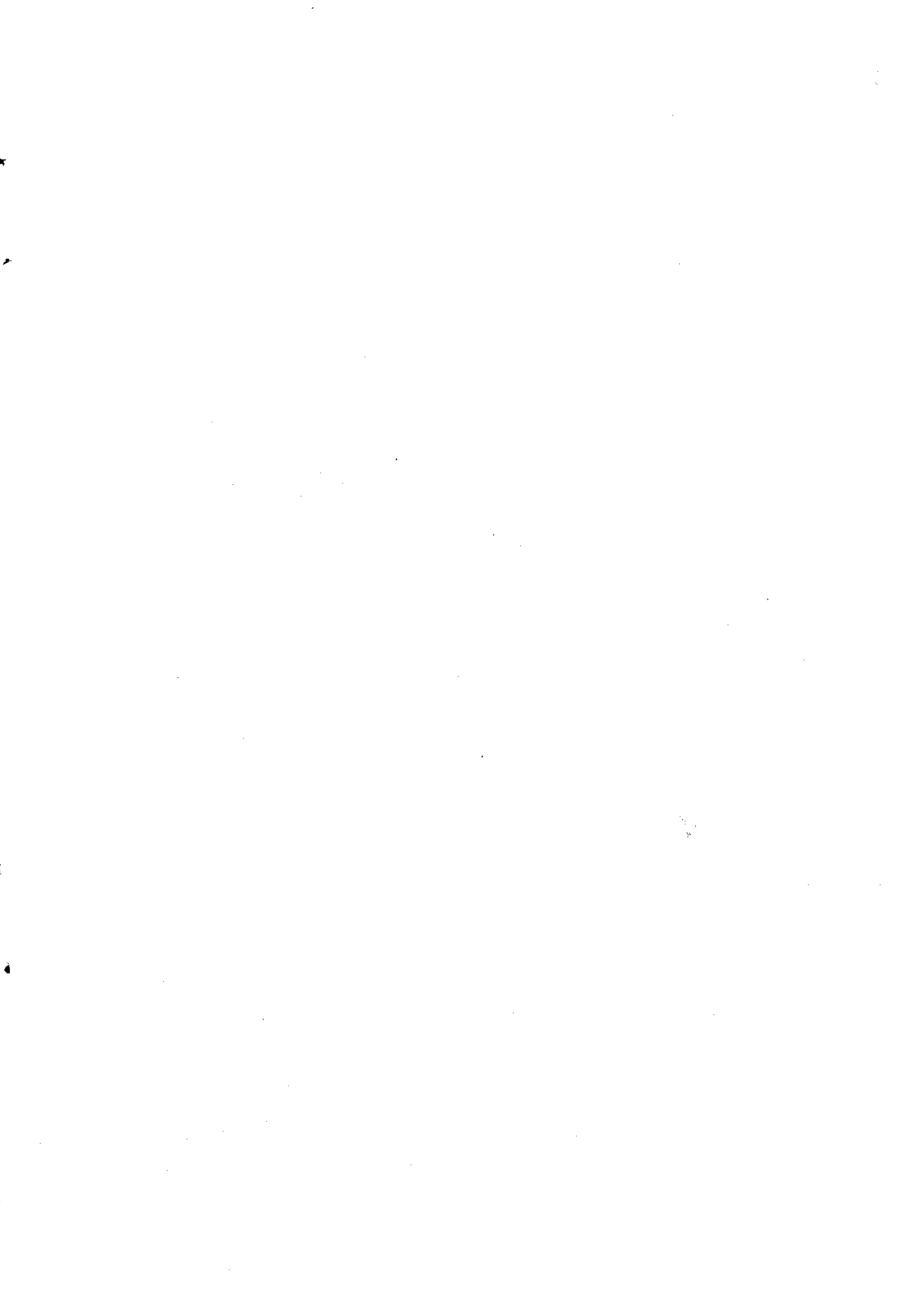
وهو ساهر فى دجى الليل البهيم يترقب أن يلوح الغلس ، والصبح ناء بعيد :

طالت على ساهر دجنته   والصبح ناء ، فمن لنا بغلَسْ

الفصل الخامس

نهاية المطاف
تراث وآثار

- ضجعة القبر
- في منطقة الظل
- انحسار الظلام



ضجعة القبر

هـذا جناه أبى عـلىّ   وما جنيت على أحـد

(وصيته على قبره)

صمد للتجربة حتى آخر العمر .

على قسوة ما كابد من أشواق بشريته ، وما لقى من افتراء خصومه وعنت مجادليه .

ولقد طال به العمر وناء بأثقال الشيخوخة : سقطت أسنانه ، وانحنى ظهره ، ووهن جسده وتخاذلت أعضاؤه ، فصار لا يستطيع النهوض الا بمعونة سواه .

ونصغى اليه ، دليل رحلة ، اذ يقول وهو فى الخامسة والثمانين من عمره ، من رسالة الى داعى الدعاة :

« قضى علىّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والربع ، ثم توالت محنى فأشبه شخصى العود المنحنى . ومُنيت فى آخر عمرى بالاقعاد وعدانى عن النهضة — أى النهوض — عاد ...

« ولو مثل بحضرته السامية ، لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب . لأن أعضاءه متخاذلة ، وقد عجز عن القيام فى الصلاة فانما يصلى قاعدا والله المستعان ..

« وانى لأعجز اذا اضطجعت عن القعود ، فربما استعنت

بانسان ، فاذا هم باعانتى وبسط يديه لنهضتى ، ضربتْ عظامى لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن » .

وكذلك ضعف سمعه الى جانب ما كان من عجزه عن البصر وعن النهضة والقيام . فيقول فى قصيدته التى نظمها فى ابن أخيه القاضى عبد الله ، شاكرا له بره واخلاصه فى رعايته وتعهده :

حمدتكَ فى الحياة أتم حمد
وأيامى ذممتُ أتم ذم
أجدّك ما تركت وأنت قاض
تعهّد مقعد أعمى أصم

والقصيدة قيلت بعد أن جاوز أبو العلاء الثمانين من عمره ، بشاهد من نصها : « وأنت قاض » وولاية أبى محمد عبد الله ابن أبى المجد لقضاء المعرة ، كانت فى سنة ٤٤٣ هـ كما نص على ذلك « ابن العديم » مؤرخ حلب ، وآل سليمان .

* * *

وبقى له على وهن الشيخوخة وتخاذل الأعضاء ، صفاء ذهنه وتوقد قريحته ، وقوة حافظته وضبطه ، وطاقته العجيبة على الدرس ، فظل تلاميذه يقرأون عليه ويكتبون له ويأخذون عنه ، الى قبيل وفاته : فبعد الثمانين من عمره ، كان « الخطيب التبريزى » يقرأ عليه كتاب (غريب الحديث لأبى عبيد) وعنه حكى وصنف (تهذيب غريب الحديث) — فيما قرأ ابن العديم بخط التبريزى :

« قال الخطيب التبريزى : وكنت قرأت هذا الكتاب ، سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، على أبى العلاء أحمد بن عبد الله ابن سليمان التنوخى المعرى . قال : قرأ علينا سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، كتاب غريب الحديث ، القاضى أبو عمرو عثمان ابن عبد الله الكرجى ، وذكر أنه سمعه من أبى عمير عدى ابن عبد الباقى ، وسمعه أبو عمير من على بن عبد العزيز صاحب أبى عبيد » .

هكذا حفظ المتن ، ووعى الاسناد ، منذ قرىء عليه الكتاب ، قبل ستين عاما !

وفى الخامسة والثمانين من عمره ، أملى اجازته لأحد طلابه ، فى رواية الجزء الثانى من مصنفه (ذكرى حبيب) ونص الاجازة :

« قال أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، من أهل معرة النعمان : قرأ علىّ هذا الجزء ، وهو الجزء الثانى من الكتاب المعروف بذكرى حبيب ، الشيخ الفاضل أبو الحسن يحيى بن محمد الرازى أدام الله عزه ، من أول الجزء الى آخره ، ووقع الاجتهاد منى فى تصحيح النسخة . وكان ابتداؤه بقراءته لسبع بقين من شعبان سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وفرغ من قراءته لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وأجزت له أن يرويه عنى على حسب ما قرأه . ويشهد الله أنى معتذر الى هذا القارىء — يعنى أبا الحسن — من تقصيرى فيما هو علىّ مفترض من حقوقه . والاعتراف

بالمعجزة ، يمنع من اللائمة المنجزة — وكتب (الاجازة) جابر ابن زيد بن عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان ، باذن أحمد ابن عبد الله بن سليمان المعرى ، فى المحرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة » .

وكذلك بقيت له قوة نفسه وصلابة زهده وبسالة مجاهدته : كان يملى رسائله الى داعى الدعاة وهو رازح تحت ثقل الشيخوخة الواهنة ، وقد احتمل ما ألح عليه به الداعى من عنف الجدل ومكر الخصومة ، وصمد لوطأة مناورته ومحاورته ، دون أن يرجع عن قراره فى الامتناع عن أكل اللحم وتعذيب الحيوان ، ولو كان فى ذلك مدعاة للطعن فى عقيدته ، بل أصر — كما سمعت من قوله — على أن يلقى الله سبحانه ، وهو لا يطالب الا بهذا الذى عدوه منه اثما ومعصية !

ومرض فلم يقبل أن يذوق لحم فروج وصفه له الطبيب علاجا . وظل منذ بلغ ثلاثين عاما ، صائم الدهر ، « فلم يفطر فى السنة ولا الشهر الا العيدين ، وصبر على توالى الجديدين » لمدى نحو نصف قرن .

* * *

ثم كان لذلك الليل الطويل آخر .

اعتل فى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ . وعاده الطبيب المشهور « ابن بطلان : أبو الحسن المختار » وكان ممن يتردد عليه للزيارة والسماع ، أثناء مقامه بديار الشام ، ولعل ابن بطلان هو الذى وصف له كأسا من شراب ، « أتاه به القاضى الأجل

أبو محمد عبد الله ابن أخيه — فامتنع من شربه . فحلف القاضى أيمانا مؤكدة لابد من أن يشرب ذلك القدح ، فاعتذر وهو ينشد :

أعبد الله ، خير من حياتى وطول ذمائها ، مـوت مريح
تعللنى لتسـقينى فذرنى لعلى أستريح وتستريح »

وأحاط به خاصة أهله من بنى اخوته وبنى عمه ، ومر عليه يوم وثان والعلة لا تفارقه ، فلما كان اليوم الثالث عرفوا أنها علة الموت !

وكان قد سألهم أن يكتبوا عنه ، فتناولوا الدوى والأقلام ، فأملى عليهم غير الصـواب ؛ فنظر بعضهم الى بعض وكأنهم يتساءلون عما به ، فما عهدوا عليه اختلالا فى المنطق أو سهوا عما يملى .

عندئذ ألقى القاضى « أبو محمد » القلم من يده ، وأمسك دمعه وهو يهمس لمن حوله من الأهل : أحسن الله عزاءكم فى الشيخ ، فانه ميت ..

ومات فى غداة غده !

تاركا وصيته ، أن يكتبوا على قبره :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد

ومسجلا بها فى لحظة النهاية ، مأساة حياته ، وموقفه منها .

وشيعوه الى مثواه الأخير ، حيث أضجعوه فى لحده .

وعلى قبره وقف أربعة وثمانون شاعرا يرثونه ، وهو مغيب تحت الثرى ، لا يسمع صوت مفجوع فيه ، ولا يجيب نداء

محزون عليه ، ولا يملك أن يرد هذا الجمع الحاشد ، الى شيء من التجلد والعزاء .

كان قريبا منهم أدنى القرب ، بعيدا أقصى البعد ، وتلميذه أبو الحسن على بن همام يناديه معاتبا :

ان كنت لم ترق الدمـــاء زهـــادة
فلقد أرقت اليـــوم من جفنى دما

وأبو الرضا عبد الواحد بن الفرج بن نوت المعرى ، يهتف به فى حسرة راثيا :

سمر الرماح وبيض الهنـــد تشتور
فى أخـــذ ثأرك والأقدار تعتـــذر
والدهر فاقد أهـــل العـــلم قاطبة
كأنهم بك فى ذا القـــبر قد قبروا
فهل ترى بك دار العـــلم عالمة
أن قد تزعزع منها الركن والحجـر
العلم بعـــدك غمد فات منصـــله
والفهم بعـــدك قوس ما لها وتر

والأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبى حصينة المعرى ، يبكيه ويبكى العلم والنهى والعفة والتقى والمكارم أجمع :

العلم بعـــد أبى العـــلاء مضيع
والأرض خالية الجوانب بلقـــع
ما كنت أعلم وهو يودع فى الثرى
أن الثـــرى فيه الكواكب تودع

جبل ظننت ، وقد تزعزع ركنــه
أن الجبــال الراســيات تزعزع

وعجبت أن تسع المعـــــرة قبره
ويضيق بطن الأرض عنه الأوســع

لو فاضت المهجـــــات يوم وفاته
ما استكثرت فيه فكيف الأدمــع

تتصرم الدنيـــا ويأتى بعـــده
أمم ، وأنت بمثـــله لا تسمع

رفض الحيــاة ومات قبل ممــاته
متطوعا بأبر ما يتطـــــــوع

عين تســـهد للعفـــاف وللتقى
أبدا ، وقلب للمهيمن يخشـــع

جادت ثراك أبا العـــلاء غمــامة
كندى يديك ، ومـــزنة لا تقلع

ما ضيع الباكى عليـــك دموعــه
ان الدموع على ســـواك تضيع

قصدتك طلاب العـــلوم ولا أرى
للعلم بابا بعـــــد بابك تقرع

مات النهى وتعطلت أســـبابه
وقضى التأدب والمكارم أجمـــع

ولمدى سبعة أيام ، أقام مقرئو المعرة على قبره يتلون القرآن ، حتى أتموا مائة ختمة ..

ثم انفض المأتم ..
واستراح المتعب ، ونام بعد طول أرق وسهاد .
ورجع الصدى يردد فى وحشة المقابر :

لعمرى ما آسى اذا مـــا تحمّلت
عن الجسم روح كان يُدعى لها ربعا
وما أسأل الأحياء بعـــدى زيارة
ثلاثا لايناس الدفين ولا ســـبعا

فى منطقة الظل

لا تظلموا الموتى وان طال المـدى

انى أخاف عليكم أن تلتقـــوا

(اللزوميات)

* رفض الحياة ومات قبل مماته * كما قال راثيه .:

لكنه فرض نفسه على الحيـاة كما لم يفرضها أديب عربى سواه ، وخاض معركته من وراء قبره ، ضد ضـلال المقاييس واختلال القيم ..

ومضى مقطوع النسل مجتث الفرع كما قال عن نفسه ..

لكنه ترك تراثه ، فعاش به كما لم يعش ذوو الكثرة والعدد من البنين والأحفاد ..

وقد تعرض تراثه لعوادى الزمن ومحنة الاضطهاد ، فلم يجد « القفطى » منه — بعد قرن وبعض قرن — الا « خمسة وخمسين مصنفا ، العدد بتقريب ، سوى ما لم يذكره : أربعة آلاف ومائة وعشرون كراسة » .

وقال : « وأكثر كتب أبى العلاء هذه قد عدمت ، وانما يوجد منها ما خرج عن المعرة قبل هجم الكفار عليها وقتل أهلها ونهب ما وجد لهم ، فأما الكتب الكبار التى لم تخرج عن المعرة فعدمت ، وان وجد منها شىء فانما يوجد البعض من كل كتاب » .

وجاء « ياقوت » بعد القفطى ، فعدّ من مصنفات أبى العلاء اثنين وسبعين مصنفا ، ذكرها بأسمائها ، مع تعريف موجز ببعضها .

ولم تصل الينا هذه البقية مما رأى القفطى وأحصى ياقوت ، وانما تاه أكثرها فى غيابة الزمن ، وترك الباقى مدفونا فى خزائن الكتب لمدى قرون ، لم يهتم أحد بنشره ، ولا عنى به الشراح والدارسون ممن عاشوا فى الأقطار العربية على ذلك المدى المتطاول .

شغلهم عنه الكلام فى عقيدته ، وترديد ما تناقل اليهم من أقوال سابقيهم فيها .

واختلفوا فيه كما اختلف من قبلهم :

منهم من أمسكوا عن الجزم باتهامه تحرجا ، أو أشكل عليهم أمره لكثرة ما قال فى تمجيد الله ، وما ألف من مصنفات فى المواعظ ، ولما شاع وذاع من ورعه وزهده ، فاكتفوا بنقل أقوال من جرحوه ، ونقلوا معها أقوال من شهدوا له بصدق الايمان وقوة اليقين ، ثم عقبوا على هذه وتلك بالكلمة المشهورة : « والله أعلم » .

وقذفه بعضهم بالزندقة والالحاد وسقم الدين ، وقرنوه مع « أبى حيان التوحيدى » و « ابن الراوندى » — من أشهر الزنادقة فى الاسلام — فى قرن واحد ، وتقربوا الى الله بلعنته ، وحكموا عليه بالخسران فى الدنيا وعذاب الجحيم فى الآخرة .

يتوارثون ذلك خلفا عن سلف ، ويتناقلونه تقليدا ، جيلا فى اثر جيل .

حتى رؤيا المنام ساقوها فى اتهامه ، وتتابع الاخباريون منهم يوردونها ناقلين ، فى معرض الكلام « عما تذاكر به متهموه من الحاده » :

ففى القرن السادس ، نقل « ابن الجوزى » عن ابن الصابى أنه قال : « ولما مات المعرى رأى بعض الناس فى منامه كأن أفعيين على عاتقى رجل ضرير ، قد تدليا الى صدره ثم رفعا رأسيهما فهما ينهشان من لحمه وهو يستغيث . فقال : من هذا ؟ فقيل : المعرى الملحد ! » .

وحكاها من بعد « ابن الجوزى » سبعة من مؤرخى أبى العلاء ، من القفطى فى القرن السابع ، الى أبى الفتح العباسى فى القرن العاشر !

وظلموه ميتا كما ظلموه حيا .

تقولوا عليه بشعر لم يرد فى ديوانيه ، وقد تم تدوينهما فى حياته ، وكتبهما عنه مباشرة كتّاب له أمناء ثقات : فسقط الزند — ديوان شعره الأول — قرىء عليه ببغداد ، وديوان اللزوم ، وجدت منه فى حياة أبى العلاء نسخ موثقة ، أشار اليها بقوله فى رسالة الضبعين :

« وفى حلب حماها الله ، نسخ من هذا الكتاب بخطوط قوم ثقات يعرفون ببنى أبى هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ؛ جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه » .

وقد أملى فيما أملى من مصنفاته ، (ضوء السقط) شرحا لديوان سقط الزند ؛ و (الراحلة ، وراحة اللزوم ، وزجر

النابح ، ونجر الزجر) شرحا لديوان اللزوم ، وتحريرا لفهم ما أسيء تأويله منه .

وأكثر هذا الذى نسبوه اليه — مما لم يرو فى ديوانيه — لا يثبت على الفحص النقدى . ومنه ما هو منسوب الى غيره ، كالبيتين :

اذا كان لا يحظى برزقك عاقل
وترزق مجنونا ، وترزق أحمقا

فلا ذنب يا رب السماء على امرىء
رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

رواهما ابن الجوزى فى (المنتظم) بين الأشعار المنسوبة اليه ، الدالة على كفره ؛ ونقلهما من بعده القفطى ؛ وياقوت ؛ وسبط ابن الجوزى وابن كثير ؛ والعينى — وهؤلاء الثلاثة ، صرحوا بالنقل عن ابن الجوزى — ثم ابن السبكى فى (طبقات الشافعية) .

والبيتان مما لم يرو فى ديوانه .

وهما منسوبان فى (معاهد التنصيص) للعباسى — ص ٧١ ط بولاق سنة ١٢٧٤ — لابن الراوندى ، وهما به أشبه ، وله فى هذا المعنى ، بيتان آخران رواهما أبو العلاء فى (رسالة الغفران) بين أشعار الزنادقة [١] .

---

(١) رسالة الغفران : تحقيق بنت الشاطىء ـ ص ٤٩٥ ط ٣ ذخائر .

وأملى معهما ما نصه :

« ولما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك علـى الجالين . فيقال ان رجلا من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال فى ذلك :

يصـول أبو حفص علينا بدرّة
رويدك ، ان المـرء يطفو ويرسب

كأنك لم تتبـع حمـولة ماقط
لتشـبع ، ان الزاد شيء محبب

فلو كان موسى صـادقا ما ظهرتم
علينـا ، ولكن دولة ثم تذهب

ونحن سبقناكم الى المين فاعـرفوا
لنا رتبة البادى الذى هـو أكذب

مشيتم عـلى آثارنا فى طريقيـا
وبغيتكم فى أن تسودوا وتكسبوا

نقلها « ياقوت » فى معجمه ، ثم عقب عليها بقوله :

« وهذا يشبه أن يكون شعره ، نحله هذا اليهودى . أو أن ايراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته ! » .

وجاء مصنفو كتاب (تعريف القدماء بأبى العلاء) فوضعوا أمام هذه الأبيات فى فهرس القوافى ، اسم أبى العلاء ، وكأن ما شبّه لياقوت وساقه على سبيل الظن والشك ، قد صار ثابتا

* * *

وكذلك راب متهميه، ما فى (رسالة الغفران) من أخبار عن الزنادقة ومرويات من أشعارهم ، كأنه كان يستلذ بها !

وذهب بعضهم فى تأويل أقواله الى مدى بعيد من ظلم الاعتساف وشطط الملحظ ، كمثل ما فعل « الزمخشرى » فى (الكشاف) فى تفسير قوله تعالى : (انها ترمى بشرر كالصقر . كأنه جمالات صفر) .

نقل فيه بيت أبى العلاء فى سقط الزند :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى
ترمى بكل شرارة كطراف

ثم قال ما نصه :

« شبهها بالطراف ، وهو بيت الأدم، فى العظم والحمرة ، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن . ولتبجّحه بما سول له من توهم الزيادة، جاء فى صدر بيته بقوله : حمراء . توطئة لها ومناداة للسامعين على مكانها . ولقد عمى — جمع الله له عمى الدارين — عن قوله عز وجل : كأنه جمالات صفر . فانه بمنزلة قوله : كبيت أحمر . وعلى أن فى التشبيه بالقصر وهو الحصن ، تشبيها له من جهتين، من جهة العظم ومن جهة الطول فى الهواء . وفى التشبيه بالجمالات — الجبال الضخمة — تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة . فأبعد الله اغرابه فى طرافه، وما نفخ به شدقيه من استطرافه » .

فهل مثل هذا التأويل المشتط ، مما يخطر على بال قارىء منصف، تحرر من سيطرة فكرة سبقت اليه بالاتهام ؟

وأبو العلاء هو الذى قال عن « القرآن الكريم » ما نقلنا اليك نصه ، من رسالة الغفران ، عند الحديث عن خصومة العصر لأبى العلاء — ص ٢١٨ .

* * *

« وتحدثت الألسن باساءته ، لكتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه : الفصول والغايات ، محاذاة للسور والآيات » .

وعبارة « محاذاة للسور والآيات » التى ذكرْت أول ما ذكرت ، وصفا للكتاب من بعض القدامى ، لم تلبث أن زحزحت عن موضعها من الالحاق الوصفى ، واقترنت باسم الكتاب حتى صارت شطر عنوانه ، على ما نقل الذهبى فى تاريخ الاسلام : « الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات » .

وربما جاءوا بفقرات منها ، وصدروها بقولهم :

« ومما ظهر من قرآن أبى العلاء » كما فى (الصبح المنبى) للبديعى .

وفى الأفق رجع صدى من صوت يقول :

لا تظلموا الموتى وان طال المدى

انى أخاف عليكم أن تلتقوا

فيهز الضمائر الحية لبعض مؤرخيه ، ويكشف عن بصيرتهم غطاء ألقته عليها أقاويل الزور وشائعات الافتراء .

منهم « القفطى » الذى ألح عليه النداء فى اليقظة والمنام ، فكتب فى (انباه الرواة) :

« كنت فى سن الصبا ، وذلك فى حدود سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، أقدح فى اعتقاد أبى العلاء ، لما أراه من ظواهر شعره وما ينشد له فى محافل الطلب . فرأيت ليلة فى النوم كأننى قد حصلت فى مسجد كبير ، فى شرقيه صفة كبيرة ، وفى الصفة سل الحصر مفروش من غير نسج ، وعليه رجل مكفوف متوسط البياض .. وهو مستقبل القبلة فى جلسته ، والى جانبه طفل ، وكأنى فهمت أنه قائده . وكأنى واقف أسفل الصفة ومعى ناس قليل ونحن ننظر اليه وهو يتكلم بكلام لم أفهم منه شيئا . ثم قال فى أثناء كلامه مخاطبا لى : ما الذى يحملك على الوقيعة فى دينى ؟ وما يدريك لعل الله غفر لى ؟ فخجلت من قوله وسألت عنه من الى جانبى ، فقال لى أحدهم : هذا أبو العلاء المعرى .. فابتسمت متعجبا للرؤيا ، واستغفرت الله لى وله ، ولم أعد الى الكلام فى حقه الا بخير » .

ومنهم « ابن العديم » الذى استقصى أخباره وآثاره ، وهو لا يبغى الا أن يجمع مادته لتأريخ أعلام حلب الى عصره ، فهاله ما لحق أبا العلاء من ظلم فادح ، وما شاع عنه من افتراء باطل شوه صورته بغير حق . وأرقه التفكير فيما تفرضه أمانة التاريخ على مثله ، من تصحيح الزيف الشائع والوهم المسيطر ، حتى ندب نفسه للمهمة الصعبة ، فتفرغ لاستقراء كل المرويات عن أبى العلاء ولقى كل الباقين من أسرته وأهل بيته ، واستقصى روايات من لقوه وصحبوه وتتلمذوا له أو قرأوا عليه وكتبوا له ، يأخذها

باسناد متصـــــل من رجال عصره الى عصر أبى العـــلاء ، وبينهما نحـــو قـــرن ونصـــف قرن . ثم ألف (كتاب الانصاف والتحرى فى دفع الظـــلم والتجـــرى عن أبى العـــلاء المعرى) وقـــدم له فقال بعد حمد الله الكريم العادل محق الحق ومبطل الباطل ، على ما منحه من التوفيق وهداه به الى سواء الطريق :

« وبعد فانى وقفت على جملة من مصنفات عالم معرة النعمان أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان ، فوجدتها مشـــحونة بالفصاحة والبيان ، مودعة فنونا من الفوائد الحسان ، محتوية على أنواع الآداب مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب . لا يجد الطامـــح فيها سقطة ، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة . ولما كانت مختصة بهذه الأوصاف ، مميزة على غيرها عند أهل الانصاف ، قصده جماعة لم يعوا وعيه ، وحسدوه اذ لم ينالوا سعيه ، فتتبعوا كتبه على وجه الانتقاد ووجدوها خالية من الزيغ والفساد . فحين علموا سلامتها من العيب والشين ، سلكوا فيها معه مسلك الكذب والمين ، ورموه بالالحاد والتعطيل ، والعدول عن سواء السبيل . فمنهم من وضع على لسانه أقوال الملحدة ، ومنهم من حمـــل كلامه على غير المعنى الذى قصده ، فجعلوا محاسنه عيوبا وحسناته ذنوبا وعقله حمقا وزهده فسقا ، ورشقوه بأليم السهام وأخرجوه عن الدين والاسلام ، وحرفوا كلمه عن مواضعه وأوقعوه فى غير مواقعه » .

والتفت « ابن العديم » الى محنة أهـــل الفضـــل بالعصر :

« يطالبهم بتراته ويقصدهم باساءته ويسلط عليهم من أبنـــائه

أعداء . قصدوا أبا العلاء بالطعن والاساءة ، واللبيب مقصـود والأديب عن بلوغ الغرض مصدود ، وكل ذى نعمة محسود » .

كما التفت الى أن كتاب الله العزيز الذى لا يتقبل التبـديل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تأوله جماعة من أرباب باطل الأقاويل ، على غير وجوه التأويل ؛ حتى ان جماعة من الكفار تمسكوا منه بآيات جعلوها دليلا على ما ذهبوا اليه من الضلالات « فما ظنك بكلام رجل من البشر ليس بمعصوم ان زل أو عثر ، وقد تعمق فى فصيح الكلام وأتى بما لا يتيسر لغيره ولا يرام .. اذا قصده بعض الحساد فحمل كلامه على غير المراد .

« وقد وضع أبو العلاء كتابا وسمه بزجر النابح ، أبطل فيه طعن المزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح وايمانه الصريح ووجه كلامه الفصيح ، ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه بنجر الزجر ، بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر ، فلم يمنعهم زجره ولا اتضح لهم عذره ، بل تحقق عندهم كفره واجترءوا على ذلك وداموا ، وعنفوا من انتصر له ولاموا ؛ وقعدوا فى أمره وقاموا .. حتى حكوا كفره بالأسانيد .. وكفره من جـاء بعدهم بالتقليد .

« فابتدرت دونه مناضلا ، وانتصبت عنه مجادلا .. وذكرت فى هـذا الكتاب مولده ونسبه ، وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصده » .

ومنهم أبو عبد الله شمس الدين الذهبى (٦٧٣ : ٧٤٨ هـ) الذى قال بعد أن نقل ما وصل اليه من أقوال الذين اتهموا أبا العلاء ، والذين شهدوا له بالتقى والايمان :

« وفى الجملة ، فكان من أهل الفضل الوافر والأدب الباهر والمعرفة بالنسب وأيام العرب .. وله فى التوحيد واثبات النبوة وما يحض على الزهد واحياء طرق الفتوة والمروة ، شعر كثير . والمشكل منه فله — على زعمه — تفسير » .

ومنهم ابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ) الذى قال فى كتاب (تتمة المختصر فى أخبار البشر) . بعد أن نقل مرثية تلميذه ابن همام :

« وقول تلميذه : * لم ترق الدماء زهادة * يدفع قول من قال انه لم يرق الدماء فلسفة ، ونسبه الى رأى الحكماء . وتلميذه أعرف به ممن هو غريب يرجمه بالغيب . وماذا على من ترك اللحم — وهو من أعظم الشهوات — خمسا وأربعين سنة زهادة ؟ ! وقد قال المكى فى قوت القلوب : اباحة حلال الدنيا حسن ، والزهد فيه أحسن . ولما أتى رسول الله أهل قباء بشربة من لبن مشوبة بعسل ، وضع القدح من يده وقال أما انى لست أحرمه ، ولكنى أتركه تواضعا لله تعالى . وأتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال : اعزلوا عنى حسابها . وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التنعم ، وكتب الرقائق وغيرها مشحونة بترك السلف الصالح للشهوات والملاذ الفانية ، رغبة فى النعيم الباقى » .

ثم نقل « ابن الوردى » مرثية الأمـير أبى الفتح المعرى لأبى العلاء ، وعقب عليها بقوله :

« فانظر الى ما رثاه أيضا به هذا الرجل ، ووصفه به من تقاه ورفضه للحياة وموته قبل الموت وتطوعه ، وهو أيضا أعلم به من الأجانب . وبالجملة فقد ألّف الصاحب كمـال الدين ابن العديم ، رحمه الله ، فى مناقبه كتابا سماه : كتاب العـدل والتحرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى ، وقال فيه : انه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن مدحه ، فوجد كل من ذمّه لم يره ولا صحبه ، ووجد كل من لقيه هو المادح له . وهـذا دليل لما قلته .

« وصنف بعض الأعلام فى مناقبه كتابا وسماه : دفع المعرة عن شيخ المعرة . وفى هذين الكتابين فصول من نوادر ذكائه واجابة دعائه ، والاعتذار عن طعن أعدائه » .

وكذلك غضب ابن فضـل الله العمـرى (ت ٧٤٩ هـ) لأبى العلاء . فيما لحقه من ظلم عن غير حق ، فقال فى (مسالك الأبصار) :

« رفض الدنيا وما سلم .. وتداوى باليأس من مطامعها ودارى الناس بترك حظه لهم ، ومع هذا ظُلم . نفض يديه من الدنيا وساكنها ، وخفض لديه قدر محاسنها .. وأخـذ نفسه بالقناعة حتى صارت جُنة تقيه المطامع ، ومنة تقويه على مغالبة الأمل الطامع ..

« وكان مطلعا على العلوم .. متبحرا فى اللغة ، متسع النطاق فى العربية ، جامع الشعوب للطرق الأدبية ؛ ندرة فى العالم وشذرة فى بنى آدم ، ما ولدت مثله الليالى ولا أوجدت شبيهه المعالى .

« وله من بدائع النظم والنثر قمراها ، ومن روائع العلم والعمل سمراها .. هذا على انقطاع حتى عن نفسه ، وامتناع حتى عن أنسه ، ونفار حتى من ظله .. مع ما منى به من فقد حاسة بصره .. وخلوه ممن يماثله فى بلده .

« والناس فيه بين مكفر ومعتقد له الولاية ، وما بين بين هذه الغاية » .

ثم نقل « العمرى » ما كتبه ابن العديم مقدمة لكتابه الانصاف والتحرى .

* * *

وظل مع ذلك مظلوما ..

ومضت قرون ذات عدد ، والتهمة تلقى ظلها على أبى العلاء فتحجبه عن أجيال من أبناء العربية ، فى عصور لم تكن تحتمل أن تخلى بينهم وبين هذا الأديب الفرد ، يهز وجداتهم بحر كلمته ، وينفذ الى قلوبهم وضمائرهم بشرف سلوكه وبطولة احتماله ، بسالة مقاومته للبغى والطغيان ، وحملته على الفساد والنفاق ...

ومن عجب أن تلك العصور التى رجمت أبا العلاء ، بتهمة الزندقة والالحاد ، رث فيها الدين وعاد الاسلام غريبا فى ديار الاسلام ، وفقد حرمته فى صراع المذاهب ومعترك الأهواء .

ففيم كانت هذه الحمية للدين ، تنكر على أبى العلاء ما حرم على نفسه من طيبات الرزق الحلال ، ولا تنكر اباحة الحرمات وانتهاك المقدسات ؟ . ترى فى امتناعه عن أكل اللحم وشرب اللبن اثما ، وتستظرف مجالس الشراب ومحافل اللهو والمجون ، ولا ترى اثما فى أكل حقوق الناس وشرب دمائهم !

فيم الغضب للاسلام ، يأخذ أبا العلاء بكلمات جرى بها لسانه تخفيفا عن كربه واحتجاجا على اختلال الأوضاع وفساد القيم ونفاق محترفى الدين ، ولا تأخذ آخرين بادعاء النبوة واعتناق المثنوية والجهر بالحلول والتناسخ والرجعة ، كأن لم يكن فى الدنيا غير أبى العلاء عدوا للدين وخصما للمسلمين ! ..

وأعجب من هذا ، عزوف الشراح والدارسين عن أدب أبى العلاء اشتغالا بعقيدته ، وهم الذين شغلوا بديوان أبى الطيب ، وأقاموا لصاحبه عرشا جثوا من حوله سجدا ، جيلا بعد جيل .

وأبو الطيب قد ادعى النبوة فيما قالوا وأكدوا ، على حين كان الناس فى أمر أبى العلاء ، بين متهم ومعتقد له الولاية كما قال « العمرى » . وما زاد متهموه على أن قالوا انه حرم على نفسه الرزق الحلال ، ونطق بشعر موهم ، فى النبوة والأنبياء ، وصرح فى بعض شعره بحيرته وشكه فيما وراء الموت .

ولم يقل أحد قط انه ادعى النبوة .. ولا استطاعوا أن يأخذوه قط ، بكلمة شرك . ولا أخذوا عليه مأخذا فى ورعه وصلابة

زهده وعفة ضميره ويده ، بل انه وجد من ينفى عنه كل تهمة ؛ ويشهد بصدق اعتقاده وقوة يقينه .

وتغاضوا عن شعره فى تمجيد الله والاقرار بوحدانيته ، وعن مصنفات له فى الزهد والمواعظ !

ولا تفسير لهذا عندى ، الا أن أبا العلاء كان نمطا فريدا لا عهد لتلك العصور بمثله ، ومن ثم بقى فيها غريبا لأنه ليس من أهلها ، وصدقت فيه كلمته :

أولو الفضــل فى أوطانهم غــرباء
تشـــذ وتنــأى عنهــم القــرباء

لقد رفض حياتهم ، فحاولوا أن يرفضوه !

« وقعدوا فى أمر عقيدته وقاموا ، وحكوا كفره بالأســانيد ، وكفّره من جاء بعدهم بالتقليد » كما قال ابن العديم ..

تشويها لصورة الأديب الحر المناضل .. استغلوا فيه العاطفة الدينية للجماهير ، كى تظل بمعزل عنه !

وزادوه تشويها ، فقالوا انه عدو المجتمع ، وما كان عــدوا الا لأعداء المجتمع ، ونسوا أنه القائل :

ولو أنى حُبيتُ الخـلد فردا   لما أحببت بالخـــلد انفرادا
فلا هطلت عــلىّ ولا بأرضى   سحائب ليس تنتظم البلادا

وقالوا : متشائم ، يئد الطموح فى نفوس الشبان ؛ ونسوا أقواله فى تمجيد العمل ، ونسوا أنهم ما فتئوا يروّجون زهديات لأبى العتاهية ، نظمها وهو غــارق الى أذنيه فى الترف بقصر الرشيد !

وقالوا فى أدبه : انه جمع الى السواد الغموض والتعقيد ، وقد حجبوا تراثه فلم ينشروه ، وانهم ليعلمون أنه تولى بنفسه شرح ديوانيه السقط واللزوم ، وفسر غريب الألفاظ فى الغفران والفصول والغايات ، وأتبع كل لغز له فى كتاب الألغاز الذى نظمه فنا بديعيا ، بحل مفسر للّغز .

وجحدوه أديبا بدعوى أنه فيلسوف .

وجحدوه فيلسوفا بدعوى أنه أديب .

وصوته يأتى من وراء القبور :

* أولو الفضـــل فى أوطانهم غــرباء *

انحسار الظلام

هوّن عليك ولا تبال بحادث يشجيك ، فالأيام سائرة بنا

(اللزوميات)

حُجب أبو العلاء عن أبناء العربية ، فى عصور رأت فيه خطرا على وجدان المجتمع ، بسلوكه الشريف وأدبه الحر ..

ومع انحسار ظلمات الطغيان والطبقية والرجعية ، بدأ نور الوعى يكشف عن بصيرتنا الغطاء .

وسمعنا أن المستشرقين شغلوا بأبى العلاء واحتفلوا بتراثه ، فنشر المستشرق الانجليزى « نيكلسون » تعريفا برسالة الغفران وفقرات من نصها ، فى المجلة الأسيوية الملكية فى أعوام ١٨٩٩ : ١٩٠٣ . ونشر المستشرق الاسبانى « ميجويل أسين بلاسيوس » عام ١٩١٧ دراسته للأصول الاسلامية فى الكوميديا الالهية لدانتى ؛ وفيها فصل كامل عن تأثر دانتى بأبى العلاء فى الغفران . ونشر « مرجليوث » الانجليزى مجموعة (رسائل أبى العلاء) ونشر « كراتشكوفسكى » عميد المستشرقين الروس ، مقدمة (رسالة الملائكة) وتتابعت بعد ذلك بحوثهم ودراساتهم ، لأديبنا المغمور فينا ، فلفتتنا اليه بعد طول غفلة واهمال .

وكان للأستاذ الدكتور طه حسين الفضل الأول فى احيـاء (ذكرى أبى العلاء) فينا ، ونقله الى بيئة الدراسات الجامعية .

وكانت هذه الذكرى ، موضوع رسالته التى نال بها من جامعتنا درجة الدكتوراه ، سنة ١٩٢٥ .

ووضع بعدها كتابيه : رهين المحبسين ، ومع أبى العـلاء فى سجنه .

ودعا الى نشر تراثه فينا ، وكان هو الذى اقترح أن تكون هدية مصر الى أبى العـلاء فى مهرجان الذكرى الألفية لمولده — دمشق ١٩٤٤ — ذلك السفر القيم الذى جمع نصـوص (تعريف القدماء بأبى العلاء) .

وباشرافه كذلك ، نشرت شروح سقط الزند فى طبعة جديدة متقنة .

ثم تتابعت الجهود فى الميدان :

نشرت القـاهرة عام ١٩٣٨ طبعة محققة للقسـم الأول من (الفصول والغايات ، تحقيق الأستاذ زناتى) لنصغى فيها الى نبض ضراعة وابتهال ، ومواعظ تمجيد وقنوت ، وتأملات أديب يتداوى من محنة الحياة باليأس منها . وهى التى زعموا أنهـا معارضة للقرآن ، وحرفوا عنوانها فجعلوه « الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات » .

وفى عام ١٩٥٠ ، نشرت القاهرة النص المحقق لرسـالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطىء ، وأرفقتها فى طبعتيها الثـانية والثالثة بنص محقق لرسالة ابن القارح ، آضاء لنا فهم ما راب

الذين قبلنا ، من ايراد أبى العلاء لأخبار الزنادقة ومرويات من أشعارهم ؛ وما كان أبو العـــلاء فيما جاء به من ذلك متطوعا مستلذا كما زعموا ، وانما هو رده على ما فى رسالة ابن القارح من أخبارهم وأشعارهم ، وقالوا : « فى رسالة الغفران مزدكة واستخفاف » ورأينـــا فيها أثرا فنيا فريدا كاشــفا عن نفسية أبى العلاء فى مجاهدته النفسية ، واستخفافا بالنفاق وسخرية بالمنافق !

ونشرت دمشق (رسالة الملائكة) التى حققها الأستاذ محمد سليم الجندى ، بعد أن نشر « كراتشكوفسكى » مقدمتها ، فأضافت جديدا الى ما لدينا من علم أبى العلاء وفنه الأدبى .

كما نشرت له آثار أخرى ، لم تستكمل حظها من التحقيق المنهجى مثل ديوان اللزوميات ، وعبث الوليد ، وملقى السبيل . وهى تخدم فى الميدان الى أن يتاح لنا الظفر بنصوص محققة لها .

وتلقت المكتبة العربية المعاصرة ، عددا غير قليل من الدراسات العلائية ، أذكر منها :

أبو العلاء وما اليه : لعبد العزيز الميمنى	الهنـــد
المهرجان الألفى لأبى العلاء : بحوث ومحاضرات	سورية
الجامع فى أخبار أبى العلاء : محمد سليم الجندى	سورية
النقد واللغة فى رسالة الغفران : أمجد الطرابلسى	سورية
أبو العلاء ناقد المجتمع : زكى المحاسنى	سورية
أبو العلاء المعرى : أحمد تيمور	مصر
رأى فى أبى العلاء : أمين الخولى	مصر

رجعة أبى العلاء : عباس العقاد مصر
الحياة الانسانية عند أبى العلاء : بنت الشاطىء مصر
الغفران : دراسة نقدية : بنت الشاطىء مصر
دار السلام فى حياة أبى العلاء : بنت الشاطىء
(نشرته وزارة الثقافة ببغداد)

واسترد أبو العلاء مكانته فينا :

الأديب المناضل ، رفض الحياة فى عصره احتجاجا على فسادها ، واعتزلها انكارا لاختلال أوضاعها ؛ وتصدى مع ذلك لقضايا مجتمعه ملتزما بها من تلقاء ذاته ، لم يحمله عليها سوى ضميره ، ولا ألزمه بها غير وجدانه الملهم وانسانيته النبيلة المصفاة .

والضرير البصير ، حجبه العمى عن الدنيا ، وعزلته سجونه عن الناس ؛ لكن هذه الحواجز لم تعزل وجدانه ولم تسدل الغطاء على بصيرته ، بل لعلها ردته أرهف ما يكون حسا وأصفى رؤية ، فكان من أعرف الناس بالناس كما قال .

والمقيد الحر ، باع كل الدنيا ليشترى شرف ضميره ورأيه ، وانسحب من السباق متنازلا عن كل شىء فى سبيل كرامته وحريته ، وراض بشريته على أقسى ضروب الحرمان ، محققا بسلوكه العملى كلمة قالها « الشنفرى » الشاعر الجاهلى الصعلوك ، من قديم الزمان :

أديم مطالَ الجوع حتى أميته
وأصرف عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستفُّ تُرب الأرض كيلا يرى له
علىَّ من الفضل امرؤ متفضل

* * *

وانه ليعيش اليوم حيا فى ضمائرنا ، يناضل من وراء ألف عام ليصحح فهمنا للأدب ، ويحررنا من قيم أدبية ورثناها عن نقاد سلفوا وعصور خلت ، وظلت مسيطرة علينا تحتكم فى ذوقنا للأدب ، وتقديرنا لمنازل الأدباء وأقدارهم .

وسيظل حيا فى ضمائر الأجيال من بعدنا ، ترى فيه أديب العربية الأكبر الذى استطاع أن يجد نفسه والظلمة من حوله كثيفة داجية ، والذى يستطيع اليوم وغدا ، أن يعلمنا رسالة الأديب وأمانة الفن وشرف الكلمة .

ويعلمنا معها ، بسالة المجاهدة وبطولة الاحتمال !

وسلام على أبى العلاء !

فهرس